حرب العقول

أبعاد وخفايا
عالم المخابرات والتجسس










تأليف عبد الله بن محمد حفظه الله



يناير ٢٠١١م-محرم ١٤٣٢هـ

الحمد لله الواحد القهار والصلاة والسلام على الضحوك القتال اللهم لا علم لي إلا ما علمتني ولا رأي لي إلا ما ألهمتني فاهدني بنور منك إلى ما يرضيك عني ، أرني الحق حقا وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه ، اللهم إنه لا حول ولا قوة إلا بك ولا ناصر ولا معين إلا أنت يا رب العالمين فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، اللهم إنه ليس لمثلي أن يسألك إلا المغفرة ولكن ليس لمن عرف شيئا من كرمك أن يترك سؤالك فأسألك بأسمائك الحسنى أن تثبتني على طاعتك وأن تتولاني وأهلي وإخواني برحمتك ، اللهم ما هي إلا نعمك أتقلب فيها كيف أشاء فلك الحمد من قبل ومن بعد وما هو إلا طمعي في مغفرتك وفضلك فاجعلني من حملة لؤاء الدين وألحقني بالصالحين .

في البداية أحب أن أتوجه بالشكر لكل من ساهم في إخراج هذا العمل وأخص بالذكر دار الجبهة للنشر وأخي الكبير أسدالجهاد٢ والشيخ أبو الزبير العباب حفظه الله والشيخ أبو المنذر الشنقيطي والذي قام مشكورا بالإجابة عن الأسئلة الفقهية الخاصة بقضايا التجسس في العصر الحديث ، وسنتناول في هذه الورقات معالم و ملامح حرب المخابرات والتي نرمز لها هنا بحرب العقول تلك الحرب الخفية التي تدور أحداثها وراء الكواليس ويقف خلف خطوط القتال الأمامية فيها أفضل ما لدى كل فريق من عقول !

وسنتعرف أيضا على دور ووظيفة العميل السري في تلك الحرب وخصائص شخصيته وما يلزم له لأداء مهمته على أكمل وجه ، وهذا بعد أن نتعرض للأساس الشرعي لوظيفة العين المسلم أو العميل السري كما سنطلق عليه هنا إتباعا للمعنى الأشمل لهذه الوظيفة ولذلك قسمت مادة البحث إلى ثمانية أبواب تتدرج في شرح ذلك وهي كالتالي :

[١] المقدمة

[٢] مشروعية التجسس

[٣] أهمية التجسس

[٤] مسائل في التجسس

[٥] خصائص شخصية العميل السري

بين يدي الكلمات . .

الحقيقة أن الحياة في ظل الجاسوسية تضفي على صاحبها ملكة مليئة بالغموض تجعل من حوله ومن يعملون معه لا يدركون غايته الحقيقية حتى يسيروا بجانبه إلى نهاية الطريق . . .

والحقيقة أن من يقرأ هذه السطور سيظن في البداية أنها ورقة عمل أولى لتوجيه العمل الاستخباري للجماعات الجهادية ، ثم سيظن أنها خطوات استخبارية عملية لتحرير فلسطين وإرجاع الأقصى للمسلمين ، ولكنه سيكتشف في النهاية أنها قد تكون خطوة أولى في الطريق إلى روما !

إهداء . . .

إلى ضابط الاستخبارات الإنجليزي : توماس إدوارد ..

إلى من لقن المسلمين درسا قاسيا في أن الحياة لا تسع الحمقى والمغفلين إلا إن اختاروا الجلوس في المقاعد الخلفية . .

إلى من قال بنشوة وهو يرى المسلمين يخون بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا من جراء خططه " إني أكثر ما أكون فخرا أن الدم الإنجليزي لم يسفك في المعارك التي خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوي في نظري موت إنجليزي واحد ! "

إلى من كان يغلي من الضحك وهو يقول : إن العرب لديهم ثقة في أعدائهم !

إلى لورنس العرب أقول : بإذن الله سنرد لكم الصاع صاعين يا ابن الكافرة . . .

عبدالله بن محمد

١٦ محرم ١٤٣٢

جزيرة العرب

[١] المقدمة

يتفق الخبراء العسكريون على أن أي خطة ناجحة يجب أن يكون لها هدف استراتيجي واضح ومجموعة تكتيكات تساعد على الوصول إلى هذا الهدف بأسهل طريقة وأقل مؤونة وأسرع وقت ،ومن أهم التكتيكات التي تساعد على حسم المعارك والانتصار في الحرب هو العمل الاستخباري المتقن الذي يوفر لك المعلومات اللازمة لبناء أي خطة ناجحة أو صد أي هجوم معادي ! وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تفعيل العمل الاستخباري قبل كل غزوة يغزوها أو سرية يبعثها ، فكان يبعث العيون ويسأل الركبان ويجس النبض ! وقد تفنن الخلفاء الراشدون من بعده في أساليب العمل الاستخباري حتى اكتسحت جيوشهم الشرق والغرب في مدة وجيزة ، فقد شكل عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاعدة خلفية وهو في المدينة يقود من خلالها الجيوش الفاتحة في بلاد ما وراء النهرين وذلك عبر شبكة معلومات واتصالات تربط جميع الجيوش والخلايا التابعة لهم بالمدينة فتجتمع عنده قاعدة معلومات يوجه من خلالها المعارك بدقة وكأنه يرى تضاريس الأرض ومجريات الأمور رأي عين ! وقد بدى ذلك واضحا في كل رسالة يرسلها إلى قادة الأجناد في العراق وبلاد فارس ، وقد أتقن الأعداء هذه الصنعة جيدا وعلموا أنها الخط الأول في حروبهم مع أي طرف كان ، فأمريكا مثلا لها أكثر من خمسة عشر وكالة مخابرات وطنية ترصد لها الميزانيات الضخمة لمراقبة كل ما يجري في العالم من أزمات دولية أو تحركات عسكرية أو تنظيمات سرية أو غيره ، فالسي آي إيه مثلا كانت وراء العديد من عمليات الاغتيالات السياسية في العالم ،جاء في إحدى الدراسات الاستراتيجية حول أمريكا والحرب الباردة (وتدخلت – أمريكا – في أكثر من ٢٠ انقلاب حول العالم وخططت للكثير من عمليات الاغتيال التي طالت زعماء دول مثل كيم كو زعيم المعارضة الكورية ١٩٤٩ وجوسي انتنيو رومون زعيم بنما و شاو اين لاي رئيس وزراء الصين ثم كيم سونج رئيس وزراء كوريا الشمالية ثم كلارو ركتو زعيم المعارضة الفلبينية وجواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند وضياء الحق و فيصل بن عبد العزيز وغيرهم كثير) وقس على ذلك روسيا وحلف الناتو وغيرهم ، أما إسرائيل فلها ثلاث وكالات استخبارية وهي : جهاز الاستخبارات للعمليات الخارجية (الموساد) وجهاز الاستخبارات للعمليات الداخلية (الشاباك) وجهاز الاستخبارات العسكرية (أمان) ويكفي أن نقول أن بعض أصحاب المناصب العليا في دولة يهود

هـم مـن أبطـال هـذه الوكـالات ومـن آخـرهـم رئيسـة الـوزراء السـابقة تسـيبي ليفـني الـتي خـدمت في الموساد أربع سنين !

مجموع هذه الدول بالإضافة إلى عملائهم في المنطقة هم الذين يشكلون الحلف الصهيوصليبي في الحرب الصليبية الجديدة ضد الإسلام والمسلمين وقد تعاونت جميع وكالات الاستخبارات في هذه الدول واندمجت في غرفة واحدة للعمليات المشتركة للحرب ضد الإرهاب أي أنهم طبقوا العولمة فيما يختص بالمعلومات الأمنية ، فأصبحت السلطات المصرية مثلا تحصل بموجب هذا التعاون على ملف أي متهم أجنبي لديها بقضايا الإرهاب من بلده وبسرعة فائقة وهو ما لم يكن يسمح به في السابق وأصبح في كل مبنى أمن دولة أو استخبارات مكتب خاص بالسي آي أيه الأمريكي لمتابعة مجريات التحقيق في أي قضية مهمة أو مع أي متهم مطلوب على لائحة الإرهاب الأمريكي ، وكل من قبض عليه في قضية كبيرة وخضع لعملية تحقيق داخل هذه الأجهزة يلاحظ أن هناك أسئلة – عادة تعرض عليه بعد انتهاء التحقيق الأولي – تكون باللغة العربية الفصحى وبأسلوب ركيك وما هي إلا ورقة الأسئلة الخاصة بضباط المخابرات الأمريكية ! وما هذا الهوس الأمني واللهث وراء كل معلومة عند الأمريكان خاصة إلا بعد أن كشفت التحقيقات التي أجريت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر أن من أسباب عجز الأجهزة الأمنية الأمريكية عن منع وقوع تلك الهجمات هو انعدام التعاون بين وكالات المخابرات الأمريكية تجاه بعض القضايا وعدم تبادل المعلومات فيما بينها ! فتعلموا من جراء ذلك درسا قاسيا في أهمية استثمار المعلومات التي بين أيديهم وبين أيدي حلفائهم ، وقد كان من شغف الأمريكان بالمعلومات في تلك الفترة بالتحديد أن قامت وكالة الإف بي آي بإرسال رسالة عبر البريد الإلكتروني إلى معظم أصحاب البريد في العالم تطلب منهم مراسلتها في حالة حصولهم على أي معلومات خاصة بالإرهاب ولو كانت صغيرة أو غير مهمة بالنسبة لهم ، وجندت الكثير من الموظفين من أجل متابعة الردود على تلك الرسائل !

وبما أننا قد قطعنا شوطا طويلا في مصاولة التحالف الصليبي فإن الغيوم بدأت تتكشف عن بداية ظهور مناطق تمركز أمني وإداري للمجاهدين ، وهذه المناطق ستكون بحاجة إلى أجهزة استخبارات قوية وفعالة تكون بمثابة جهاز إنذار أولي ضد أي تهديد خارجي على هذه المناطق أو على التيار

الجهادي العالمي الذي تمثله ، وقد أثبت المجاهدون قدرتهم على إدارة بعض العمليات الاستخبارية المعقدة كعملية اغتيال السادات وأحمد شاه مسعود وغزوتي نيويورك وواشنطن وغيرها الكثير والتي كان من آخرها محاولة اغتيال مساعد وزير الداخلية السعودي في جدة ، وكان القاسم المشترك بين هذه العمليات أنها سبقت بعمل استخباري عظيم استخدمت فيه وسائل مختلفة من التضليل والتغطية والاستدراج وغيرها فكانت النتائج باهرة أرعدت فرائس أعداء الدين وزادتهم رعبا كلما تذكروا أن المجاهدين قد وصلوا إلى هذه الدرجة العالية من العمل الاستخباري المتقن ، والحقيقة أن المكتبات العسكرية زاخرة بمواد قيمة عن العمل الاستخباري وليس كل ما فيها يصلح لنا كمسلمين فالعمل التجسسي بين الدول بات رديفا للسكر والعهر والقمار والرشاوي وغيرها من المحاذير الشرعية ، فكيف يمكن للعميل السري المجاهد أن يعمل في تلك البيئات الفاسدة وكيف يمكن أن يستفيد من الأخطاء والتجارب السابقة في هذا المجال ليقوم بدوره المهم والحيوي في خدمة الدين ورفع لؤاء المسلمين ؟ هذا ما سنتعرض إليه في هذه الورقات مع بعض المسائل الفقهية التي لا يستغني عنها العميل السري ، فباب الجهاد وما يتصل به من أكثر الأبواب الفقهية التي وردت فيها الرخص الشرعية ، فالصلاة مع الخوف تتغير هيئتها ويعزم على الصائم بالفطر مع قرب القتال والحج يؤخر إن تزاحم مع الجهاد المتعين ويرخص أيضا بالاختيال في المشية إغاضة للعدو وبالكذب في الحرب ، وما يندرج تحتها من الرخص التي توسع فيها العلماء مراعاة للتيسير على المجاهدين ، فالجهاد عبادة شاقة على النفس [وهو كره لكم] والقاعدة الفقهية تقول : المشقة تجلب التيسير . وقد توجهت بالأسئلة الفقهية إلى فضيلة الشيخ أبو المنذر المقدسي –حفظه الله– فأجاب عليها مشكورا في الباب الثالث .

وبقي أن أقول أن هذه الرسالة ما هي إلا ورقة عمل أولى لرص الصفوف وتنظيم العمل استعدادا للمرحلة القادمة من العمل الاستخباري ، وهذه الورقات قد يعتريها ما يعتري غيرها من النقص والخطأ والنسيان ، والأمل معقود من بعد الله عز وجل على الأخوة المختصين من أصحاب الخبرة في تهذيبها وإشباعها بالتجارب المفيدة لتعم الفائدة ، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

[٢] مشروعية التجسس

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحجرات :١١-١٢]

وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ فيه النهي عن التجسس وهو خاص فيما بين المسلمين وعلى الوجه الذي يكون فيه إفساد لأن النهي جاء في سياق الآيات الناهية عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب والظن السيئ والغيبة وهي مجموعة توجيهات موجهة للمجتمع المسلم ، وقد جاءت النصوص بالتشديد في الإبتعاد عن التجسس ودواعيه فقد روى الإمام أحمد عن أبي برزة الأسلمي أن النبي صلى الله عليه وسلم ((قال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في جوف بيته)) بل إن الوعيد قد لحق من انتهك حرمة بيت المسلم ولو بإلقاء نظرة عابرة في البيت دون إذن صاحبه لما فيه من دواعي التجسس المنهي عنه ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه– أن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال :((لو أن امرءًا اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح)) أخرجه البخاري .

أما إن كان نقل الأخبار والمشاهدات لولاة الأمر على سبيل الإصلاح والنصح للمسلمين ودفع الأذى عنهم فقد دلت النصوص الشرعية على جواز ذلك : قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن الحكم، عن محمد بن كعب القرظي عن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فقال عبد الله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، قال: فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك، قال: فلامني قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا ؟ قال: فانطلقت فنمت كئيباً حزيناً، قال: فأرسل إلي نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إن الله قد أنزل عذرك وصدقك» قال: فنزلت هذه الآية ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ

خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون : ٧,٨]
وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف فلما كان آخر حجة حجها عمر فقال عبد الرحمن بمنى : لو شهدت أمير المؤمنين أتاه رجل قال : إن فلاناً يقول لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلاناً فقال عمر : لأقومن العشية فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوهم .

وقال ابن الماجشون : اللصوص وقطاع الطرق أرى أن يطلبوا في مظانهم ، ويعان عليهم حتى يقتلوا أو ينفوا من الأرض بالهرب ، وطلبهم لا يكون إلا بالتجسس عليهم وتتبع أخبارهم .انتهى.
هذا فيما يتعلق بالتجسس داخل دائرة الإسلام ، أما إن كان التجسس على المسلمين لصالح أعدائهم وبقصد إلحاق الأذى والضرر بهم فهذا لا شك في حرمته ، وتختلف عقوبة الجاسوس بحسب حاله وفيما يلي تفصيل لأحوال الحكم الشرعي للجاسوس المسلم والذمي والكافر حسب ما بينته اللجنة الشرعية في منبر التوحيد والجهاد :
بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد..
بداية؛ لابد أن نفرق بين مفهوم الجاسوسية قديما عند بعض الفقهاء ومفهومها المعروف في عصرنا الحديث، فالجاسوس قديما كان يدخل فيه كل من يراسل الكافرين ويخبرهم ببعض الأخبار العامة للمسلمين، أو بما يريدون أن يقوموا به من قتال ونحوه ؛ ولو كان متأولا في ذلك وليس من أنصار الكفار على الحقيقة ، أما الجاسوس في مصطلح العصر الحديث فلا يكون إلا من أولياء الكفار وأنصارهم على الحقيقة فهو يشارك الكافرين في حربهم على المسلمين، فينقل أخبار المجاهدين وتحركاتهم وسكناتهم لحظة بلحظة، في ظل التطورات التقنية ووسائل الاتصال السريعة؛ فيسهل لأعداء الدين ضرب المجاهدين، بل أعداء الدين لا يتحركون لضرب المجاهدين إلا بناء على معلومات جواسيسهم، فهم عيونهم التي يرون بها، فهذا الجاسوس في الواقع مُظاهر ومناصر لهم على الإسلام والمسلمين، بل ومشارك لهم في مباشرة قتل المسلمين، فأصبح بتجسسه مواليا

للكافرين، ومظاهرا لهم على المسلمين، فلا فرق بينه وبين سائر الكافرين المحاربين للدين، فهذا كافر بعينه، مرتد عن الإسلام، يجب قتله ردةً.

أما الجاسوس بالمفهوم القديم، وهو الذي يفشي بعض أخبار المسلمين للكافرين لتأويل ، فهذا يسميه بعض الفقهاء بالعميل السري، وفعله كبيرة عظيمة كما ذكر ابن القيم رحمه الله، حيث قال في "زاد المعاد": (وفيها – أي في قصة حاطب –: أن الكبيرةَ العظيمَةَ مما دون الشركِ قد تُكَفَّرُ بالحسنةِ الكبيرةِ الماحية، كما وقع الجَسُّ مِن حاطب مكفَّراً بشهوده بدراً)، فهذا التجسس بهذا المفهوم هو الذي وقع الخلاف في عقوبته قديما، والفقهاء وإن كانوا قد اتفقوا على أن فعله يستحق التعزير، إلا أنهم اختلفوا في نوعية عقوبته على عدة أقوال:

فذهب الشافعي، وأبو حنيفة، وبعض أصحاب مالك، وأبو يعلى وغيره من الحنابلة وهو ظاهر مذهب أحمد: أنه لا يُقتل، بل يُجلد جلدًا وجيعًا، ويُطال حبسه إلى أن يتوب، ويُنفى مِن الموضع الذي يكون فيه قريبا من الكفار.

أما الإمام أحمد فالمنصوص عنه التوقف في عقوبته.

وقالَ سُحْنون من المالكية:" إذا كاتَبَ المسلمُ أهلَ الحرب، قُتِلَ، ولم يُستتب، ومالُه لورثته".

وقال ابن القاسم من المالكية:" يُقتل ولا يعرف لهذا توبة، وهو كالزنديق".

وذهب الإمام مالك وباقي أصحابه وكذا ابنُ عقيل من أصحاب الإمام أحمد إلى جواز قتله، وأن قتله راجع إلى رأى الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين، قتله، وإن كان استبقاؤه أصلحَ، استبقاه، وعاقبه بما يراه مناسبا من جلد وحبس، وقد رجح ابن القيم هذا القول.

أما الجاسوس الحربي الكافر: فقد اتفقوا جميعا على وجوب قتله.

وأما الجاسوس الذمي وكذا المستأمن: فذهب الحنفية وبعض المالكية والأوزاعي والحنابلة إلى أنه ينتقض عهده بذلك، فيعامله الإمام معاملة الأسير الكافر، فيتخير بين القتل أو الاسترقاق أو المن أو الفداء.

وأما الشافعية فأصح أقوالهم أنه لا ينتقض عهدهم بذلك، وعليه فلا يعامل معاملة الأسير، بل يوجع عقوبة ويطال حبسه.

هذا؛ والله تعالى أعلى وأعلم.

أجابه، عضو اللجنة الشرعية :الشيخ أبو الوليد المقدسي .انتهى .

أما ما نحن بصدده هنا فهو مشروعية التجسس على الكفار وهم كل من كان خارج دائرة الإسلام من أهل الكتاب والمشركين والطوائف المعادية للإسلام والمنحرفة عنه ، وقد جاءت النصوص المتواترة بمشروعية ذلك وأهميته :

[مشروعية التجسس على الكفار]

التجسس لغة : أصله الجس ، قال صاحب القاموس المحيط في باب السين فصل الجيم " الجس : المس باليد كالاحتباس وموضعه المجسة وتفحص الأخبار كالتجسس ، ومنه : الجاسوس ، ثم قال : وجسه بعينه : أحد النظر إليه ليستثبت . ولهذا قالوا الجساسة : تكون في الجزائر تجس الأخبار فتأتي بها الدجال ". انتهى.

التجسس اصطلاحا : عرف البعض التجسس بالعين ، وتتبع أخبار المسلمين ، ومن يأتي بأخبار العدو . ويمكن أن نقول إجمالا : أن التجسس هو كل ما يتوصل به في معرفة خبر العدو .

(١) قال الله تعالى ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل :٢٢] قال ابن كثير : أي بخبر صدق حق يقين ، قلت : وفي هذه الآية دلالة واضحة على مشروعية التجسس على الكفار وإن كانوا من غير المحاربين ، فالهدهد هنا قد تجسس على مملكة سبأ وبإقرار سليمان عليه السلام والقاعدة الشرعية تقول أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأت شرعنا بخلافه والأدلة من هدي النبي صلى الله عليه وسلم تدل على مشروعية التجسس على الكفار كما سيأتي .

(٢) قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء :٧١] قال ابن كثير في تفسيره : يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم وهذا يستلزم التأهب لهم . وقال السعدي : "وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتالهم ويستدفع مكرهم وقوتهم ، من استعمال الحصون والخنادق وتعلم الرمي والركوب وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك ، وما به يعرف مداخلهم ومخارجهم ومكرهم ". انتهى .

قلت : والتجسس هو الباب الذي نعرف به مداخل العدو ومخارجه فهو من لوازم الحذر الذي أمرنا الله تعالى به في هذه الآية الكريمة .

(٣) جاء في السيرة : قال ابن إسحاق "فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمدا إلى غار ثور – جبل بأسفل مكة – فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما.

قال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم أن الحسن بن أبي الحسن البصري : قال انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه. قال ابن إسحاق : "فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثا ومعه أبو بكر وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم. وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون به وما يقولون في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر. وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفي عليه حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له" . انتهى .

ويؤخذ من هذه القصة مشروعية التجسس لما قام به عبدالله بن أبي بكر وفيها أيضا بيان أهمية التجسس في إنجاح الهجرة النبوية التي ترتب عليها إنشاء الدولة النبوية كأول تجمع رسمي للمسلمين ،وفي هذا إرشاد وتوجيه لما يجب أن تسلكه الجماعات الجهادية باختيارها لأراضي الهجرة والإعداد ولما يجب أن تتبعه في تهريب أفرادها من أراضي الظلم والجور إلى أراضي العزة والجهاد ، فقد كانت الأخطاء الأمنية ونقص المعلومات الاستخبارية وراء وقوع الكثير من المجاهدين في الأسر أثناء هجرتهم وانتقالهم إلى أراضي الجهاد، فمن واجب أهل الأمر أن يتدبروا جيدا الإجراءات التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم قبل وأثناء الهجرة من تأمين وسيلة النقل المناسبة والخروج في وقت ومكان غير متوقع والاستعانة بدليل مؤتمن ثم الاختفاء في محطة عبور آمنة وهي الغار وتأمين

الإعاشة والتمويه والتجسس على تحركات العدو لأنه بناء عليها سيتم تحديد طريق الهجرة ثم السفر عن طريق غير متوقع بمحاذاة البحر ، فهذه الإجراءات هي التي ساعدت على إنجاح أهم هجرة في التاريخ والتي مازال المسلمون يؤرخون بها أيامهم إلى يومنا هذا.

(٤) جاء في السيرة في حديث سرية نخلة :

قال ابن اسحاق : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب ، مقفله من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضي لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحدا .

فلما سار عبدالله بن جحش يومين فتح الكتاب ، فنظر فيه فإذا فيه : (إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم) . فلما نظر عبدالله بن جحش في الكتاب ، قال : سمعا وطاعة ؛ ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى نخلة ، أرصد بها قريشا ، حتى آتيه منهم بخبر ؛ وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم . فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ؛ فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف عنه منهم أحد .

والشاهد هنا هو قوله "تعلم لنا من أخبارهم" ولفظ " تعلم لنا من أخبارهم" فيه شمول أكثر من أن لو قال "تسمع لنا من أخبارهم" لأن كلمة "تسمع" قد يقتصر فيها الأمر على تسمع الأخبار واستراق السمع أما "تعلم" فهي توحي بشمولية وتنوع أكثر في وسائل التعرف على أخبار قريش وكأنها بمثابة ضوء أخضر من النبي صلى الله عليه وسلم لهذه السرية في اتخاذ ما يلزم من وسائل التنصت والخداع والتجنيد وأي أمر يستجلب به المعلومات الاستخبارية الخاصة بتحركات قريش .

والحديث فيه مشروعية الاستطلاع والتجسس على أخبار العدو ويوضح مدى حرص النبي صلى الله عليه وسلم على جمع المعلومات المتعلقة بتحركات أعدائه العسكرية والتجارية ومدى حرصه أيضا على صون المعلومات من التسريب لما اتبعه من إجراءات وقائية في إخفاء هدف السرية حتى على الأفراد الذين خرجوا فيها وهو ما بات يعرف بالرسائل المقفلة .

(٥) أخرج مسلم في صحيحه عن يزيد التيمي رحمه الله قال ((كنا عند حذيفة ، فقال رجلٌ : لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلت معه وأبليت ، فقال حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب ، وأخذتنا ريحٌ شديدة ، وبرد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا رجلٌ يأتيني بخبر القوم ، جعله الله معي يوم القيامة ؟ " فسكتنا ، فلم يجبه منا أحد . ثم قال : " ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معي يوم القيامة ؟ " فسكتنا فلم يجبه منا أحد . ثم قال : " ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معي يوم القيامة ؟ " فسكتنا فلم يجبه منا أحد فقال : " قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم " فلم أجد بُداً إذ دعاني بإسمي ، أن أقوم . قال " اذهب ، فأتني بخبر القوم ، ولا تذعرهم علي " أي لا تفزعهم ولا تحركهم علي ، ومعناه : لا تنفرهم وتعرفهم بأمرك . فلما وَليتُ من عنده جعلت أمشي كأنني أمشي في حمام ، حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يصْلَى ظهره بالنار –أي يُدفئه – فوضعت سهماً في كبد القوس، فأردت أن أرميه ، فتذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " ولا تذعرهم علي " ولو رمته لأصبته ، فرجعت فلما أتيته أخبرته بخبر القوم ، وفرغت قُرِرْت – أي بردت – فألبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عباءةٍ كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائماً حتى أصبحت ، فلم أصبحت قال : " قم يا نومان ")). وحديث حذيفة هذا هو العمدة في مشروعية التجسس على الكفار .

(٦) كان رسول الله إذا بعث سرية قال لهم ((إذا سمعتم الأذان فأمسكوا وكفوا وإن لم تسمعوا الأذان فأغيروا)) أو قال ((فشنوا الغارة)) وفي صحيح البخاري ((عن أنس قال كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يغير إذا طلع الفجر ، وكان يستمع الأذان ، فإن سمع أذانا أمسك وإلا أغار)) قلت : وفيه دلالة على جواز التجسس وتسمع أخبار القوم لمعرفة أحوالهم .

(٧) جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد أن العباس بن عبدالمطلب كان عينا للنبي صلى الله عليه وسلم على قريش .

ومن هذا يتبين لنا مشروعية التجسس على الكفار وأنه من الأعمال الداعمة لحركة الجهاد والمؤثرة فيه ، وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أنواع من العمل الاستخباري قبل كل غزوة يغزوها أو سرية يرسلها ، فتحركات جيوش الأعداء ونواياهم كانت تأتيه عن طريق عيونه المنتشرة في أرجاء

المنطقة ، فكانت الغزوات والسرايا تنطلق بموجب هذه المعلومات وبناء عليها وليس عن طريق الوحي ! وفي هذا تعليم للأمة بأهمية هذا العمل لحركة الجهاد المنطلقة منها ولحمايتها هي من أعدائها المتربصين بها ، وبأن هذا العمل منوط بالجهد البشري وليس له علاقة بالوحي الذي قد يجد فيه البعض حجة في التكاسل عن أداء هذا الواجب بما أن النبي صلى الله عليه وسلم يطلع على ما لا نطلع عليه !

والواجب المتحتم على الأمة في هذه الأيام كما بينه العلماء هو القيام بفريضة الجهاد التي افترضها الله على عباده والتي تعتمد على الإعداد الجيد كشرط للشروع فيها ، قال الله تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] وبما أن التجسس وهو نوع من أنواع العمل الاستخباري يدخل في الإعداد الجيد للمعركة والذي كان يحرص عليه النبي صلى الله عليه وسلم أشد الحرص ، فإنه يأخذ حكم الوجوب في كل عمل عسكري يعتمد على المعلومات الاستخبارية في تحقيق نجاحه ، وهذا هو الموافق للقاعدة الفقهية المشهورة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) .

[٣] – مسائل في التجسس

تعترض العميل السري العديد من المواقف والمسائل الفقهية التي يشكل عليه وجه الصواب فيها وذلك لطبيعة عمله الإستثنائية بكل المقاييس ولذلك توجهت ببعض أهم المسائل التي يمكن أن تطرح في هذا المجال إلى فضيلة الشيخ أبو المنذر الشنقيطي– حفظه الله وكانت الأسئلة على النحو التالي :

السؤال الأول : هل يجوز للجاسوس المسلم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

الجواب :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبيه الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فمن المهم – بين يدي الإجابة على هذه الأسئلة – التنبيه على مسالة مهمة وهي أن أحكام الجهاد مبنية على مراعاة الضرورات الملحة التي لا تنفك غالبا عن الحرب والقتال، والملاحظ في النصوص الشرعية وما استنبط منها أهل العلم من أحكام فقهية أن الأمور الحاجية في باب الجهاد تأخذ حكم الضرورات القاهرة في سائر الأبواب والمسائل الفقهية ، أي أن الحاجيات في الحرب والقتال تعتبر من باب الضرورات القاهرة التي تكون رافعة للحظر وجالبة للرخصة ولا يقيد ذلك إلا قاعدة الضرورة تقدر بقدرها .

ومن الأدلة على ذلك:

الدليل الأول :

روى مسلم في صحيحه عن حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أن أمه أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وكانت من المهاجرات الْأُوَلِ اللاتي بايعن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيرا وينمي خيرا قالت : ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها.

الدليل الثاني :

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة من طريق أبي بكر بُور بْن أَصْرَمَ عن عبد الله عن معمر عن همام بن منبه ، وجابر بن عبد الله من طريق صدقة بن الفضل عن ابن عيينة عن عمر :أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(الحرب خَدْعَةٌ) .

الدليل الثالث :

روى البخاري في صحيحه :

عن عبيد الله بن أبي رافع قال سمعت عليا رضي الله عنه يقول : بعثني رسول الله صلى الله عليه و سلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت ما معي من كتاب فقلنا لَتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لَنُلْقِيَنَّ الثياب فأخرجته من عقاصها ...الحديث .

وجه الدلالة من الحديث أنهم أرادوا نزع ثياب المرأة وهددوها بذلك وإنما جاز ذلك للضرورة .

الدليل الرابع :

روى النسائي في السنن الكبرى :أنبأ إسحاق بن إبراهيم قال أنبأ عبد الرزاق قال حدثنا معمر قال سمعت ثابتا البناني يحدث عن أنس قال :(لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر قال الحجاج بن علاط يا رسول الله إن لي بمكة مالا وإن لي بها أهلا وأنا أريد أن آتيهم فأنا في حل إن أنا نلت منك وقلت شيئا فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم (...وفي رواية) :وأتى مكة وأشاع بها أن أصحاب محمد قد استبيحوا ، وأني جئت لآخذ مالي فابتاع من غنائمهم ، ففرح بذلك المشركون واختفى من كان بها من المسلمين ، فأرسل العباس بن عبد المطلب غلامه إلى الحجاج يقول له : ويحك ما جئت به فما وعد الله به رسوله خير مما جئت به ، فقال له : اقرأ على أبي الفضل السلام وقل له : ليخل لي بيتا ، فإن الخبر على ما يسره ، فلما أتاه الغلام بذلك قام إليه فقبل ما بين عينيه ، ثم أتاه الحجاج بن علاط فخلى به في بعض بيوته ، وأخبره أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد فتحت عليه خيبر وجزت فيه سهام المسلمين ، واصطفى رسول الله منها صفية لنفسه ، وإن رسول الله أباح له أن يقول ما شاء ليستخرج ماله ، وسأله أن يكتم ذلك عليه ثلاثا حتى يخرج ، ففعل ، فلما أخبر بذلك بعد خروجه فرح المسلمون ورجع ما كان بهم من المقت على المشركين ، والحمد لله رب العالمين .

وجه الدلالة أن أخذ المال من الحربيين من متعلقات الحرب معهم فكان ترخيص النبي صلى الله عليه وسلم للحجاج بن علاط في ذلك القول الذي فيه تظاهر بالكفر وفيه إخبار بما لم يقع دليلا على ما قلنا.

الدليل الخامس :

روى الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : (من لكعب بن الأشرف ، فإنه قد آذى الله و رسوله) ، فقام محمد بن مسلمة ، فقال : يا رسول الله أتحب أن أقتله ؟ قال : (نعم) ، قال : فأذن لي أن أقول شيئا . قال : (قل) ، فأتاه محمد بن مسلمة ، فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، و إنه قد عنانا ، و إني قد أتيتك

أستسلفك ، قال : و أيضا و الله لتَمَلُّنَّهُ . قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، و قد أردنا أن تُسْلِفَنا وَسَقاً أو وَسَقَيْن .. الحديث .

قال بن حجر :)وفيه جواز الكلام الذي يحتاج إليه في الحرب) فتح الباري (٧ / ٣٤٠).

ثم أبدأ بعون الله الإجابة على الأسئلة :

الجواب : قلنا إن ضرورة الحرب قد تبيح ارتكاب بعض المحذورات الشرعية ، وإذا كان الأمر كذلك فمن باب أولى أن تبيح السكوت على المنكر أو عدم تغييره، وتغيير المنكر في هذه الحالة ينسحب عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان). فيجب في هذه الحالة إنكار المنكر بالقلب وعدم التغيير لما يترتب على ذلك من المفسدة.

السؤال الثاني : هل يجوز للجاسوس المسلم أن يلبس الصليب للتمويه ؟

الجواب : قد ذكرت في إجابة سابقة ترخيص أهل العلم في هذه المسألة فقلت هناك:

1-قال الإمام برهان الدين ابن مازة:(أما المسلم فقد يعقد الزنار على نفسه في دار الحرب لمصلحة ترى في ذلك).المحيط البرهاني - (٢ / ٣٦٩)

2-قال النووي: (ولو شد على وسطه زنارا ودخل دار الحرب للتجارة كفر وإن دخل لتخليص الأسارى لم يكفر. (روضة الطالبين - (١٠ / ٦٩)

3-قال ابن نجيم :(ويكفر بوضع قلنسوة المجوسي على رأسه على الصحيح، إلا لضرورة دفع الحر أو البرد، وبشد الزنار في وسطه إلا إذا فعل ذلك خديعة في الحرب.) البحر الرايق ١٣٣/٥

4-قال علاء الدين علي بن خليل الطرابلسي (ت : ٨٤٤هـ:) (ولو شد الزنار على وسطه ودخل دار الحرب قال القاضي أبو جعفر الْأُسْرُوشَنِيُّ : إن فعل لتخليص الأسارى لا يكفر ولو دخل للتجارة يكفر). معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام – (٢ / ٣٠٣)

5-وقال عبد الرحمن بن محمد بن سليمان الكليبولي المدعو بشيخي زاده (ت:١٠٧٨هـ:) (ويكفر بوضع قلنسوة المجوس على رأسه على الصحيح إلا لتخليص الأسير أو لضرورة دفع الحر والبرد عن البعض وقيل إن قصد به التشبيه يكفر وكذا شد الزنار في وسطه)مجمع الأنهر – (٤ / 449).

6-قال الشربيني (ت: ٩٧٧هـ) في مغني المحتاج عطفا على المسائل غير المكفرة: (ولا إن شد الزنار على وسطه أو وضع قلنسوة المجوس على رأسه و دخل دار الحرب للتجارة أو لتخليص الأسارى).
وكذا قال أبو بكر (المشهور بالبكري) بن محمد شطا الدمياطي (ت: بعد ١٣٠٢هـ)في حاشية إعانة الطالبين – (٤ / ١٥٦)

السؤال الثالث: هل يجوز للجاسوس المسلم أن يتزوج بكتابية بنية الطلاق ؟

الجواب : الجواب على هذا السؤال يقود إلى البحث في مسألتين:

المسألة الأولى : حكم الزواج بنية الطلاق

اختلف أهل العلم في صحة النكاح بنية الطلاق ، فذهب الجمهور من والمالكية والشافعية والحنابلة – في ما نقل ابن قدامة في المغني – إلى صحة هذا النكاح ، وذهب الأوزاعي إلى عدم الصحة.

قال ابن قدامة: (وإن تزوجها بغير شرط ، إلا أن في نيته طلاقها بعد شهر ، أو إذا انقضت حاجته في هذا البلد ، فالنكاح صحيح في قول عامة أهل العلم إلا الأوزاعي).

وسبب الخلاف في هذه المسألة هو الخلاف في تحديد مفهوم "نكاح المتعة" ، فقد ذهب الجمهور الذين أجازوا هذا النكاح إلى أن نكاح المتعة لا يطلق إلا على ما ذكر فيه الأجل عند العقد.

قال عليش : (وحقيقة نكاح المتعة الذي يفسخ مطلقا النكاح الذي ذكر الأجل عند عقده للولي أو للمرأة أو لهما معا).

وقال ابن قدامة في تعليل القول بالإباحة: (لأنه- أي النكاح بنية الطلاق -نكاح وقع على وجهه ، وليس فيه شروط ، كشرط المدة في نكاح المتعة وغاية ما في الأمر أن الزوج أضمر الطلاق في قلبه ، ولم تعلم به الزوجة ولا وليها ، وربما لم يعلم بنيته أحد إلا الله ، وإذا كان كذلك فإضمار النية لا يضر ، إذ أن إضمار الطلاق من حقه ، إذ كل متزوج يتزوج وفي نيته إذا لم تعجبه ، فإنه يطلقها ومثل هذا جائز).

فاستدل أصحاب هذا القول بخلو هذا العقد من الشرط في الأجل ، وقالوا : لا يفسد بالنية ، لأنه قد ينوي ما لا يفعل ويفعل ما لا ينوي ، بل ذهب المالكية إلى أن الزواج بنية الطلاق مع عدم التصريح بها في العقد يصح حتى وإن فهمت المرأة أو وليها ذلك.

قال عليش: "وأما إن لم يذكر ذلك ولم يشترط وقصده الزوج في نفسه وفهمت المرأة ووليها منه ذلك فإنه يجوز قاله الإمام مالك رضي الله تعالى عنه ، وهي فائدة جليلة تنفع المتغرب "(منح الجليل - (6\316)

وقال الشافعية : يكره هذا النكاح خروجا من خلاف من أبطله ، ولأن كل ما يبطل التصريح به يكره إضماره.

وهذه المسألة من المسائل التي سئل عنها الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في رحلته إلى الحج فقد قال عند الحديث عن الأسئلة التي سأله عنها أهل قرية "لجنينة: "

(ومما سئلنا عنه: الغريب في بلد يريد التزوج فيه ونيته أنه إن أراد العودة لوطنه ترك الزوجة طالقاً في محلها، فهل تزوجه مع نية الفراق بعد مدة، يجعل نكاحه نكاح متعة، فيكون باطلاً أم لا؟

فالمسألة باختصار هل يجوز الزواج بنية الطلاق؟ بدون أن يشرط عليهم ذلك ولا يخبرهم ولا يكلمهم ولا يتفق معهم في العقد ولا شيء، شخص تزوج امرأة بنية أن يطلقها بعد مدة؟

قول جمهور العلماء الجواز، وأنها فرق بين هذا وبين نكاح المتعة، نكاح المتعة نكاح على أجل معلوم بين الزوجين يُذكر في العقد، وبانتهاء المدة ينتهي العقد، أما هذا نية حديثة في النفس غير مخبر عنها ولا متفق عليها ولا هي في العقد، ثم كما يقول الشيخ عبد العزيز في تبين رجحان الجواز، قال: قد يأتيه منها أولاد وقد يرغب فيها، وقد يمسكها ولا يطلقها، وأن الفراق ظني، فقول جمهور العلماء في هذه المسألة :الجواز) انتهى كلامه.

والراجح في هذه المسألة هو ما قرره الجمهور من القول بالإباحة وذلك لأمور:

الأول: أن الطلاق من حق الزوج ولم يرد في الشرع ما يمنع من نيته قبل العقد.

الثاني : أن أركان النكاح وشروطه إنما تتعلق بالأمور الظاهرة التي يطلع عليها لا بالأمور الخفية التي لا يمكن الإشهاد عليها مثل النية.

الثالث: أن القول باشتراط نية الديمومة لصحة الزواج يوقع الناس في الأنكحة الباطلة دون علمهم لأن الزوج قد يضمر الطلاق في نفسه دون أن تعلم المرأة أو وليها أو الشهود.

الرابع : قد يكون الرجل في غربة أو مقيما في مكان يعلم برحيله عنه لا محالة ويكون في مدة

إقامته بحاجة شديدة إلى إعفاف نفسه بالنكاح فمنعه من ذلك مخالف لمقصود الشارع من إباحة النكاح.

الخامس : أن النية مجردة عن القول والعمل لا تنبني عليه مؤاخذة في الشرع لما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم).

فلا حرج – إن شاء الله – في النكاح بنية الطلاق.

المسألة الثانية : حكم الزواج بالحربية في دار الكفر

اختلف العلماء في جواز نكاح الكتابية في دار الحرب ، على ثلاثة أقوال:

القول الأول : منع النكاح في دار الكفر مطلقا لغير الغزاة :

فقد ذهب الإمام أحمد إلى منع النكاح في دار الحرب مطلقا (سواء بمسلمة أو كتابية) لغير الغزاة حيث قال بمنع الزواج في أرض الكفر للأسير ومن دخل إليها بأمان كالتجار ونحوهم ،وهو أيضا قول الزهري.

قال الخرقي في متنه: (ولا يتزوج في أرض العدو إلا أن تغلب عليه الشهوة فيتزوج مسلمة ويعزل عنها ولا يتزوج منهم وإن اشترى منهم جارية لم يطأها في الفرج وهو في أرضهم.) متن الخرقي.

وقال ابن قدامة تعليقا على كلامه: (من دخل أرض العدو بأمان ، فأما إن كان في جيش المسلمين ، فمباح له أن يتزوج.

وقد روي عن سعيد بن أبي هلال ، أنه بلغه ، (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج أبا بكر أسماء ابنة عميس ، وهم تحت الرايات). أخرجه سعيد.

ولأن الكفار لا يد لهم عليه ، فأشبه من في دار الإسلام.

وأما الأسير ، فظاهر كلام أحمد أنه لا يحل له التزوج ما دام أسيرا ، لأنه منعه من وطء امرأته إذا أسرت معه ، مع صحة نكاحهما.

وهذا قول الزهري ، فإنه قال : لا يحل للأسير أن يتزوج ، ما كان في أيدي العدو.

وكره الحسن أن يتزوج ما دام في أرض المشركين ؛ لأن الأسير إذا ولد له ولد كان رقيقا لهم ، ولا يأمن أن يطأ امرأته غيره منهم.

وسئل أحمد عن أسير اشتريت معه امرأته ، أيطؤها ؟ فقال : كيف يطؤها ، فلعل غيره منهم يطؤها ، قال الأثرم : قلت له : ولعلها تعلق بولد ، فيكون معهم.

قال : وهذا أيضا.

وأما الذي يدخل إليهم بأمان ، كالتاجر ونحوه ، فهو الذي أراد الخرقي ، إن شاء الله تعالى ، فلا ينبغي له التزوج ؛ لأنه لا يأمن أن تأتي امرأته بولد فيستولي عليه الكفار ، وربما نشأ بينهم ، فيصير على دينهم.

فإن غلبت عليه الشهوة ، أبيح له نكاح مسلمة ؛ لأنها حال ضرورة ، ويعزل عنها ، كي لا تأتي بولد.

ولا يتزوج منهم ؛ لأن امرأته إذا كانت منهم ، غلبته على ولدها ، فيتبعها على دينها.

وقال القاضي ، في قول الخرقي : هذا نهي كراهة ، لا نهي تحريم ؛ لأن الله تعالى قال : { وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم }

ولأن الأصل الحل ، فلا يحرم بالشك والتوهم ، وإنما كرهنا له التزوج منهم مخافة أن يغلبوا على ولده ، فيسترقوه ، ويعلموه الكفر ، ففي تزويجه تعريض لهذا الفساد العظيم ، وازدادت الكراهة إذا تزوج منهم ؛ لأن الظاهر أن امرأته تغلبه على ولدها ، فتكفره ، كما أن حكم الإسلام تغليب الإسلام فيما إذا أسلم أحد الأبوين ، أو تزوج المسلم ذمية ، وإذا اشترى منهم جارية ، لم يطأها في الفرج في أرضهم ، مخافة أن يغلبوه على ولدها ، فيسترقوه ، ويكفروه).المغني - (٢١ / ١١٣)

وقال ابن القيم رحمه الله: "وإنما الذي نص عليه أحمد، ما رواه ابنه عبد الله، قال: كره أن يتزوج الرجل في دار الحرب، أو يتسرى، من أجل ولده، وقال في رواية إسحاق بن إبراهيم: لا يتزوج ولا يتسرى الأسير، ولا يتسرى بمسلمة، إلا أن يخاف على نفسه، فإذا خاف على نفسه لا يطلب الولد ..." [أحكام أهل الذمة (٢/٤٢٠)]

القول الثاني : حرمة نكاح الكتابية في دار الحرب.

ذهب ابن عباس وإبراهيم النخعي – فيما نقل القرطبي- إلى التحريم نكاح الكتابية في دار الحرب ، قال القرطبي: (وأما نكاح أهل الكتاب إذا كانوا حربا فلا يحل، وسئل ابن عباس عن ذلك فقال: لا يحل، وتلا قول الله تعالى :{قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ }[التوبة: ٢٩] إلى

قوله { صَاغِرُونَ }قال المحدث: حدثت بذلك إبراهيم النخعي فأعجبه. وكره مالك تزوج الحربيات، لعلة ترك الولد في دار الحرب، ولتصرفها في الخمر والخنزير). تفسير القرطبي - (٣ / ٦٩)

القول الثالث : كراهة نكاح الكتابية في دار الحرب

فقد ذهب الشافعية والحنفية والمالكية إلى كراهة ذلك.

قال السرخسي رحمه الله :(بلغنا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن سئل عن مناكحة أهل الحرب من أهل الكتاب؟ فكره ذلك، وبه نأخذ، فنقول: يجوز للمسلم أن يتزوج كتابية في دار الحرب، ولكنه يكره) المبسوط(161 / 6) .

العلة في منع وكراهة الزواج في دار الحرب أو الزواج بالحربية:

ذكر أهل العلم في ذلك أسبابا كثيرة وهي ترجع في مجملها إلى أمرين رئيسيين:

الأمر الأول: الخوف على ذرية المسلم في دار الحرب.

قال ابن مفلح :(وعلل الإمام المنع في دار الحرب من أجل الولد لئلا يستعبد) المبدع شرح المقنع - (٧ / ٦٤).

وقال السرخسي: (لأن فيه تعريضَ ولده للرق، فربما تحبل فتسبى، فيصير ما في بطنها رقيقا، وإن كان مسلما، وإذا ولدت تخلق الولد بأخلاق الكفار، وفيه بعض الفتنة، فيكره لهذا). المبسوط - (٦ / ١٦١).

وقال القرطبيُّ: "وكره مالك تزوج الحربيات لعلة ترك الولد في دار الحرب ولتصرفها في الخمر والخنزير". تفسير القرطبي - (٣ / ٦٩).

وقال خليل ابن إسحاق المالكي في" المختصر "عطفا على من يمنع نكاحهن : (والكافرة إلا الحرة الكتابية بكره وتأكد بدار الحرب ولو يهودية تنصرت وبالعكس) مختصر خليل - (١ / ١٠١).

وقال الخرشي تعليقا على كلامه :(يعني أن كره تزويج الحرة الكتابية في دار الحرب أشد من كره تزويجها في بلد الإسلام لتركه ولده بها ولأنه لا يأمن من تربيته على دينها وأن تدس في قلبه ما يتمكن منه ولا تبالي باطلاع أبيه على ذلك) شرح خليل للخرشي - (١١ / ٩٣).

ولهذا نص بعض أهل العلم على أن له أن يتزوج بمسلمة ويعزل عنها وبعضهم أجاز له التزوج بالحربية ولا يقصد الولد، كل ذلك خوفا على الولد.

وهذه العلة أيضا هي التي جعلت المالكية يقولون بكراهة نكاح الكتابية مطلقا سواء في دار الكفر أو دار الإسلام ، لكنهم رأوا هذه العلة أكثر تحققا في نكاح الكتابية في دار الحرب فقالوا بأن نكاحها أشد في الكراهة من نكاح الكتابية في دار الإسلام.

قال النفراوي في شرحه للرسالة :

(وإنما كره نكاحها– أي الكتابية –في بلاد المسلمين لأن الزوج ليس له منعها من أكل الخنزير ولا من شرب الخمر ولا من الذهاب إلى الكنيسة، وهذا يؤدي إلى تربية الولد على دينها، وأيضا ربما تموت وهي حامل فتدفن في مقبرة أهل الشرك، والولد الكائن في بطنها محكوم له بالإسلام، ولأن النكاح مظنة المودة المنهي عنها بقوله تعالى: {لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [المجادلة: ٢٢ [الآية،)الفواكه الدواني – (٣ / ٩٨٠).

الأمر الثاني: الخوف من ركون المسلم إلى المقام في دار الكفار وتكثير سواد الكافرين وتقليل سواد المسلمين ،والاضطرار إلى مزاولة المنكرات.

قال السرخسي في تعليل كراهة الزواج بالحربية: (أنه إذا تزوجها ثمة، ربما يختار المقام فيهم(... المبسوط – (٦ / ١٦١).

وقال الحطاب عند قول خليل" : وتأكد بدار الحرب: "(قال ابن عرفة عن عياض أشد ما علل به فيهما سكناه معها بدار الحرب حيث يجري حكمهم عليه وهو بإجماع جرحة ثابتة). مواهب الجليل لشرح مختصر الخليل – (٥ / ١٣٤)

الخلاصة:

أن الأصل في نكاح نساء أهل الكتاب هو الحل دون تفريق بين كونهن في دار الكفر أو دار الإسلام لقوله تعالى : {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ}[المائدة : ٥] ولم يرد في النصوص الشرعية ما يقيد هذا العموم أو يخصصه.

وهذا وحده كاف لترجيح القول بالإباحة.

وقد رأينا كذلك أن من قال بالتحريم أو الكراهة في هذه المسألة إنما قال ذلك لمراعاة الولد أو

خشية الإقامة في دار الكفر ولا شك أن هاتين العلتين منتفيتين في حق من حرص على العزل أو عدم التسبب في الإنجاب، وكذا من كان زواجه غير حامل له على الإقامة في دارهم.

وبكل حال فإن هذه العلل تنتفي في حق من اضطر إلى نكاح الكتابية للتمويه إن حرص على العزل.

وبهذا يتبين من خلال المسألتين المتقدمتين مشروعية الزواج بنية الطلاق ، ومشروعية زواج الكتابية في دار الحرب. والله أعلم.

السؤال الرابع : هل يجوز للجاسوس المسلم شراء الخمور وتقديمها لبعض من يريد استدراجه في الحديث من أفراد العدو حتى يثمل ويفقد توازنه ويبدأ بإفشاء المعلومات ؟

الجواب :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبيه الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فالجواب على هذا السؤال ينبغي أن يستخلص مما ذكرنا مما سبق من أدلة على كون أحكام الحرب مبنية على حالة الضرورة وأنه شرع فيها من الترخيص ما لم يشرع في غيرها ، ولعل أقرب مماثل للحرب في هذا الأمر هو مجال الطب حيث يباح للطبيب ما لا يباح لغيره من مباشرة العورات للضرورة..

وقد تحدث الفقهاء عن مشروعية إزالة الغصة بالخمر وإباحة الميتة للمضطر كل ذلك إعمالا لقاعدة "الضرورات تبيح المحظورات. "

ولا يمكن هنا إطلاق إباحة استخدام الخمر في ما ذكر من استدراج للكفار بحيث يستخدمها العميل السري متى شاء وأنى شاء ، بل الصواب الانطلاق من كون ذلك ضرورة وأن "الضرورة تقدر بقدرها "فيشرع ذلك فقط عندما تكون الحاجة داعية إليه ولا يوجد من الوسائل المشروعة ما يحقق الغرض.

وينبغي للمجاهدين دائما استفراغ الجهد في تطوير وابتكار الوسائل المشروعة حتى يكون استخدامهم للمحظورات كوسائل هو الأقل والأندر.

فهذا من التقوى التي أمر الله بها وهو مندرج تحت قول النبي صلى الله عليه وسلم : (اتق الله حيثما كنت).

لكن من الضروري أيضا أن نعلم أن هذه الوسائل المحرمة قد تكون في بعض الأحيان متعينة وواجبة إذا كان في عدم استخدامها مضرة على المسلمين..

فالأمر يتعلق بالموازنة بين المأمور والمحظور والحسنات والسيئات. والله أعلم

والحمد لله رب العالمين

السؤال الخامس : ما هي مشروعية عمليات التجميل لتغيير بعض ملامح وجه العميل السري ؟

الجواب :ذكرنا أن الحاجيات في باب الجهاد تقوم مقام الضرورات وأنه لا يقيد ذلك إلا قاعدة الضرورة تقدر بقدرها ، وعليه فينبغي النظر في هذه المسألة ومدى كونها متعينة لتحقيق الهدف المقصود الانعدام غيرها من الوسائل.

فإن كانت بالفعل متعينة فهي تأخذ حكم الضرورات في جلب الرخصة .

السؤال السادس: هناك محاضرات كفرية في معسكرات فيلق بدر وحزب الله وغيرها فهل يجوز للجاسوس المسلم أن يستمع إليها دون إنكار وهل يدخل ذلك في قوله تعالى (إنكم إذا مثلهم) ؟

الجواب:هذه المسألة راجعة إلى قضية سقوط وجوب تغيير المنكر الذي ذكرنا في الإجابة على السؤال الأول.

السؤال السابع: هل يجوز للجاسوس المسلم أن يترك بعض هيئات الصلاة التي توحي بأنه ملتزم ؟ أو أنه سني إن كان مجال عمله بين الروافض كحزب الله ؟

الجواب: إن كانت هذه الهيئات من أركان الصلاة فتغييرها مبطل للصلاة فتجب إعادتها، .وإن كانت هيئات غير واجبة كالقبض ونحو ذلك فلا حرج في تركها للضرورة .

السؤال الثامن: ما هو الضابط في مسألة جواز الكذب في الحرب وهل يجوز للجاسوس أن يكذب على كل حال أو فقط فيما يحتاج إليه ؟

الجواب : هو مسألة ضرورة والضرورة تقدر بقدرها فلا يجوز الكذب في الحرب إلا لحاجة.

السؤال التاسع: هل يجوز للجاسوس المسلم النظر في وجه المرأة الأجنبية خاصة أن بعض مجالات العمل تحتم عليه ذلك؟

الجواب : يجوز إن دعت الضرورة لذلك كما قال علي للمرأة في الحديث السابق : (لتخرجن الكتاب أو لننزعن الثياب).

السؤال العاشر: هل يجوز للجاسوس المسلم الإسبال والتشبه بزي الكفار وقصات شعورهم ؟

الجواب : يجوز له ذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم : "الحرب خدعة" ، والخدعة إنما تكون في هذه الحالة وأمثالها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومثل ذلك اليوم: لو أن المسلم بدار حرب، أو دار كفر غير حرب، لم يكن مأموراً بالمخالفة لهم في الهدى الظاهر، لما عليه في ذلك من الضرر، بل قد يستحب للرجل، أو يجب عليه أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر، إذا كان في ذلك مصلحة دينية من دعوتهم إلى الدين، والاطلاع على باطن أمورهم، لإخبار المسلمين بذلك، أو دفع ضررهم عن المسلمين ونحو ذلك من المقاصد الحسنة). [اقتضاء الصراط المستقيم ١ / ٤١٨].

السؤال الحادي عشر:هل يجوز للجاسوس المسلم أن يغتاب المسلمين أو يطعن ويفتري على المجاهدين عند العدو ؟

الجواب:يجوز له أن يتحدث عن المسلمين بما يفهم منه الأعداء أنه ناقم على الإسلام والمسلمين كما قال محمد بن مسلمة في الحديث السابق : (إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، و إنه قد عنانا).

السؤال الثاني عشر : هل يجوز للجاسوس المسلم تدخين السجائر أو الشيشة للتمويه ؟

الجواب: إنما حرمت السجائر لما يترتب عليها من ضرر ، لكن الوقاية من ضرر السجائر بالنسبة للمتعاطي لها تقدم عليه الوقاية من ضرر الكفار بالنسبة لعموم المسلمين.

وقد تقرر في الشرع أن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة ، بل إن المجاهد يضحي بنفسه ويتسبب في قتلها دفاعا عن الإسلام والمسلمين..

فإذا كان يجوز له التسبب في إتلاف نفسه لهذا الغرض فكيف لا يجوز له ما قد يؤدي إلى تلف

نفسه للغرض نفسه ؟

لكن ينبغي أيضا التقيد بقاعدة (الضرورة تقدر بقدرها) فلا ينبغي استخدام هذه السجائر إلا عند الحاجة زمانا ومكانا وكيفية وينبغي ألا تخرج عن إطار التمثيل إلى الممارسة الحقيقية إلا لأسباب ضرورية.

السؤال الثالث عشر: هل يجوز الانضمام للسلك العسكري أو الدبلوماسي في الأنظمة الكفرية بقصد التجسس لصالح المجاهدين ؟

الجواب :كان من سنة النبي صلى الله عليه وسلم في القتال أنه يبعث العيون على الأعداء ويتخبر أخبارهم.

والانضمام إلى صفوف الأعداء من أجل نقل أخبارهم من الأمور التي تدعوا إليها الضرورة ما لم تكن مشتملة على إعانة حقيقية للكفار ، والأمور بمقاصدها ، وكل ما يستفيده الأعداء من العميل السري المنتسب إليهم من فوائد كتكثير سوادهم ونحو ذلك فلا حرج فيه إذا كانت مصلحة المسلمين في تجسسه أعظم أثرا.

وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم للعباس يوم بدر : "أما ظاهرك فكان علينا وأما باطنك فإلى الله" فلأنه لم يكن على علم بإسلامه ، ولم يفعل العباس ما فعل من الخروج بإذن من النبي صلى الله عليه وسلم.

فكل من خرج مع الكفار للتجسس عليهم ونقل أخبارهم إلى المسلمين بأمر من المسلمين فعمله جهاد لأن فيه إعانة للمجاهدين.

فينبغي للمجاهدين الاهتمام بهذا الأمر وأن يجتهدوا في اختيار من يقوم به لصعوبة المهمة.

والله أعلم.

السؤال الرابع عشر : هل يجوز للجاسوس المسلم أن يتلف أو يغنم أموال الكفار والمرتدين إن قدر عليها وأمن المفسدة جراء ذلك ؟وهل يجوز له أن يحتال في معاملاته المالية مع الشركات والبنوك التابعة لهم – نرجوا التفصيل الدقيق لأهمية المسألة– ؟

الجواب :أموال المحاربين كلها مباحة غير معصومة فيشرع إتلافها وإفسادها

وقد روى البخاري: (حدثنا قتيبة حدثنا ليث عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم حرق نخل بني النضير وقطع وهي البويرة فأنزل الله تعالى :{ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين }).

كما يشرع أخذها بأي وسيلة سواء بالقوة أو بالحيلة.

وقد نص ابن قدامة في المغني على أن التلصص في دار الحرب من أبواب الرزق الحلال.

وقد ذكرت هذه المسألة بشيء من التفصيل في إجابة في هذا المنتدى – منبر التوحيد والجهاد – بعنوان:هل يغش المسلم الكافر؟. "

السؤال الخامس عشر: هل يجوز التجسس على الأحزاب والجمعيات الإسلامية المنحرفة فكريا إن كان في ذلك مصلحة متحققة ؟

الجواب : الأمر يتوقف على طبيعة هذه المصلحة...

فإن كانت هذه الجماعات تتعاون مع بعض أعداء الدين لمحاربة المجاهدين فلا حرج في التجسس عليهم لصد عدوانهم ودفع أذاهم، وإن لم يكن لهم من خطر إلا نشر منهجهم المنحرف فلا ضرورة للتجسس عليهم بل ينبغي صرف الجهود في بيان الحق وكشف الباطل.

السؤال السادس عشر : هل يجوز الإفراط في تعذيب من نستجوبهم من الأعداء أو عملائهم وهل يلزمنا شيء إن ماتوا جراء هذا التعذيب ؟

الجواب :إن كان هؤلاء ضالعون في تعذيب المسلمين فيشرع معاملتهم بالمثل قصاصا ، أما إن كانوا ممن لديه معلومات يراد انتزاعها فينبغي أن يلجأ إلى أخف وسيلة من الضغط والتهديد، ولا يجوز الإفراط في التعذيب بلا سبب موجب.

ومما ورد في النهي عن التعذيب: حديث ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا « وحديث أنس: أن النبي صلى الله عليه وسلم « نهى أن تصبر البهائم » وحديث هني بن نويرة : أن ابن مكعبر مثل به ، فقال علقمة : قال عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أعف الناس قتلة أهل الإيمان « وحديثه عن ابن علية ، عن خالد الحذاء ، عن أبي قلابة ، عن أبي الأشعث ، عن شداد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»:إذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدكم مديته ، وليرح ذبيحته »

و قال الإمام الشافعي : « المثلة واتخاذ ما فيه الروح غرضا وإحراق أهل الشرك بالنار لا يحل فعل ذلك بهم بعد أن يؤسروا ، ويحل أن يقاتلوا فيرموا بالنبل والحجارة ويشهب النار وكل ما فيه دفع لهم عن حرب المسلمين ومعونة لأهل الإسلام عليهم وقد أباح الله رمي الصيد بالنبل ما كان ممتنعا ، فإذا أخذ فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ عرضا يرمى ، وأمر أن يذبح أحسن الذبح ، والآدمي في ذلك أكثر من الصيد ، ».

ومن وقع منه شيء من ذلك فليتب إلى الله تعالى ويستغفره .

أسأل الله تعالى أن يوفق كل المجاهدين لما يحبه ويرضاه وأن يتقبل أعمالهم ويضاعف أجورهم ويغفر سيئاتهم.

والله أعلم والحمد لله رب العالمين

[٤] – أهمية التجسس

يعتبر العمل المخابراتي من أنواع الحروب الخطيرة التي لا تدار إلا من وراء ستار أو من خلف الكواليس ، وقد دخلت معظم دول العالم في العصر الحديث في هذا النوع من الحروب فيما كان يعرف بالحرب الباردة والتي بدأت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتهت بانهيار الاتحاد السوفيتي وهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم بلا منازع بعد حرب استخبارية طاحنة مع المعسكر الشرقي العنيد ، فكان الغزو السوفيتي لأفغانستان عام ١٩٧٩ للميلاد وصمود المجاهدين في وجه المد الشيوعي فرصة ذهبية لأمريكا التي لم تتأخر في اللعب من خلف الكواليس وعن طريق الدول الإسلامية وعلى رأسها باكستان والسعودية لتعطي ضوءا أخضر لدعم المجاهدين من جهة بجانب الحرص على استثمار انتصارات المجاهدين لتصب في صالحها من جهة أخرى ! وبالفعل انسحب الروس من أفغانستان بعد أن أنهكت الحرب اقتصادهم ومعنوياتهم ، فكانت هذه الهزائم المريرة في تلك السنين الطاحنة كافية لبداية انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي ، فاعتبر الأمريكان ذلك نجاحا ساحقا لهم وبقي عليهم أن يتخلصوا من الخطر الجديد الذي شكله المجاهدون المنتصرون والمتلهفون لإكمال المسيرة ، فقامت المخابرات الأمريكية بإشعال الفتنة بين الأحزاب الأفغانية عن طريق السعودية وباكستان أيضا ، فاندلع القتال بين الأفغان أنفسهم وتفرقوا نتيجة لذلك ثم تعاونت المخابرات الأمريكية مع المخابرات الباكستانية في عملية اغتيال رأس المجاهدين العرب الشيخ عبدالله عزام رحمه الله فتفرق العرب نتيجة لذلك ، وانتهت هذه الجولة بمقتل عصفورين بحجر أمريكي واحد ، وألف بعدها الرئيس الأمريكي السابق نيكسون كتابه الشهير . . نصر بلا حرب !
قال الشيخ أبو مصعب السوري حفظه الله كلاما مفاده أن روسيا قد نجحت طوال سنين الحرب الباردة في التغلب على أمريكا في معظم نقاط الصراع والنزاع حول العالم إلا أن النجاح الاستخباري الأمريكي في أفغانستان كان بمثابة الضربة القاضية للروس في هذه الحرب الباردة !
ويتبين لنا من ذلك مدى أهمية العمل الاستخباري في تحقيق الأهداف الاستراتيجية بأسرع وقت وأقل التكاليف ، والمتأمل في تاريخ الحروب يرى بوضوح أن القادة العسكريين الناجحين هم

وحدهم من يهتمون اهتماما زائدا في جمع أكبر قدر من المعلومات عن حالة العدو العسكرية والسياسية والاقتصادية بل والاجتماعية أيضا حتى يتكون لديهم صورة طبق الأصل عن الجيش والقوة المقابلة فيتضح لديهم نتيجة لذلك الأسلوب الأفضل في التعامل مع العدو والأدوات اللازمة لذلك والوقت المناسب للتنفيذ ، فحرب المعلومات والتجسس والتضليل والتمويه لا تقل أهمية عن حروب السيوف والقنابل قديما وحديثا ، فقد كان سيف الله المسلول خالد بن الوليد لا يكتفي بإرسال العيون دون أن يذهب يستقصي المعلومات بنفسه وبطرق مختلفة ، وقد كان لصلاح الدين الأيوبي جواسيس داخل القدس قبل أن يدخلها بجيشه وكذلك محمد الفاتح كان لديه جواسيس في داخل القسطنطينية وقت حصارها ينقلون له أدق التفاصيل عن تحركات جيش البيزنطيين وتمركز قواتهم ونقاط ضعف سور المدينة بل ويكتبون له التقارير عن المشاكل الداخلية بين أهل المدينة حتى يستغلها في تشديد الحصار وقد كان لذلك أثرا كبيرا في فتح تلك المدينة العظيمة التي بشر النبي صلى الله عليه وسلم بفتحها روى أحمد في المسند والبخاري في التاريخ الكبير عن عبدالله بن بشر الغنوي عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش))

الحقيقة أن وظيفة التجسس لا تقتصر على تمهيد العمل العسكري فحسب ، بل إن لها جوانب أخرى قد تكون أكثر تأثيرا من الجانب العسكري على العدو كالتجسس الاقتصادي والذي تمارسه إسرائيل على نطاق واسع لإضعاف قدرات المسلمين الاقتصادية كما حدث في قضية إفساد خصوبة بعض الأراضي الزراعية في المغرب عن طريق زرعها ببذور خاصة لذلك ، أو كما حدث في التعاملات المالية المشبوهة التي تعرضت لها إندونيسيا في التسعينيات بتخطيط أمريكي فتسببت في الأزمة المالية التي أدخلت إندونيسيا في حالة عصيبة من الركود الاقتصادي ! وهناك التجسس العلمي وهو في حقيقته حرب شعواء بين الدول المتقدمة وخاصة في مجال أسلحة الدمار الشامل وغزو الفضاء ، ومازلنا نسمع عن بيع أسرار البرامج النووية وعمليات اغتيال و اختفاء علماء الذرة – كحادثة اغتيال عالم الذرة المصري المشد على أيدي الموساد في باريس عام ١٩٨٠ – وحوادث اغتيال العلماء الإيرانيون الجارية الآن على قدم وساق وغيرها من الأمور الغامضة ! وهناك أيضا

التجسس الديني فقد عانت قوى الاستعمار الصليبي من شدة قتال الحركات الإسلامية المجاهدة في البلدان التي احتلتها بالقوة العسكرية وأيقنوا أن الدافع الذي يدفع المسلمين لقتالهم وعدم الرضوخ لهم هو تمسكهم بالقرآن الذي يدعوهم إلى الجهاد ، وبعد دراسة مستفيضة للدين الإسلامي توصلوا إلى أن الطريقة الأنجع لترويض المسلمين هي في تحريف معاني القرآن ومعالم الشريعة الإسلامية عن طريق مذاهب جديدة تخدم الوجود الصليبي وتوقف المد الجهادي ، ولم يجدوا أفضل من البيئات التي يغلب عليها الجهل وتكثر فيها البدع كأتباع الطرق الصوفية والمذاهب الشيعية لغرز تلك البذور الخبيثة بينهم !

جاء في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة التي أصدرتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي :

" البابية والبهائية حركة نبعت من المذهب الشيعي الشيخي سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزي بهدف إفساد العقيدة الإسلامية وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية."

وقد أسس هذه الحركة الميرزا علي محمد رضا الشيرازي ١٢٣٥-١٢٦٦هـ ١٨١٩ - ١٨٥٠ م وفي عام ١٢٥٩ م ذهب إلى بغداد وبدأ يرتاد مجلس إمام لشيخية في زمانه كاظم رشتي ويدرس أفكاره وآراء الشيخية. وفي مجالس الرشتي تعرف عليه الجاسوس الروسي كينازد الغوركي والمدعي الإسلام باسم عيسى النكراني والذي بدأ يلقي في روعهم أن الميرزا علي محمد الشيرازي هو المهدي المنتظر والباب الموصل إلى الحقيقة الإلهية والذي سيظهر بعد وفاة الرشتي وذلك لما وجده مؤهلاً لتحقيق خطته في تمزيق وحدة المسلمين.

في ليلة الخميس ٥ جمادى الأولى ١٢٦٠ هـ - ٢٣ مارس ١٨٤٤م أعلن أنه الباب نسبة إلى ما يعتقده الشيعة الشيخية من ظهوره بعد وفاة الرشتي المتوفى ١٢٥٩ هـ، وأنه رسول كموسى وعيسى ومحمد - عليهم السلام - بل وعياذاً بالله - أفضل منهم شأناً، فآمن به تلاميذ الرشتي وانخدع به العامة واختار ثمانية عشرة مبشراً لدعوته أطلق عليهم حروف الحي إلا أنه في عام ١٢٦١ هـ فقبض عليه فأعلن توبته على منبر مسجد الوكيل بعد أن عاث وأتباعه في الأرض فساداً وتقتيلاً وتكفيراً

للمسلمين، في عام ١٩٦٣ م تولى تسعة من البهائيين شؤون البهائية بتأسيس بيت العدالة الدولي من تسعة أعضاء أربعة من أمريكا، واثنان من إنجلترا وثلاثة من إيران وذلك برئاسة فرناندو سانت ثم تولى رئاستها من بعده اليهودي الصهيوني ميسون الأمريكي الجنسية ".

وجاء أيضا في الموسوعة عن القاديانية :

"القاديانية حركة نشأت سنة ١٩٠٠م بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية، بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام، وكان لسان حال هذه الحركة هو مجلة الأديان التي تصدر باللغة الإنجليزية.

كان مرزا غلام أحمد القادياني ١٨٣٩- ١٩٠٨م أداة التنفيذ الأساسية لإيجاد القاديانية. وقد ولد في قرية قاديان من بنجاب في الهند عام ١٨٣٩م، وكان ينتمي إلى أسرة اشتهرت بخيانة الدين والوطن، وهكذا نشأ غلام أحمد وفياً للاستعمار مطيعاً له في كل حال، فاختير لدور المتنبئ حتى يلتف حوله المسلمون وينشغلوا به عن جهادهم للاستعمار الإنجليزي. وكان للحكومة البريطانية إحسانات كثيرة عليهم، فأظهروا الولاء لها، وكان غلام أحمد معروفاً عند أتباعه باختلال المزاج وكثرة الأمراض وإدمان المخدرات.

معظم القاديانيين يعيشون الآن في الهند وباكستان وقليل منهم في إسرائيل والعالم العربي ويسعون بمساعدة الاستعمار للحصول على المراكز الحساسة في كل بلد يستقرون فيه.

وللقاديانيين نشاط كبير في أفريقيا، وفي بعض الدول الغربية، ولهم في أفريقيا وحدها ما يزيد عن خمسة آلاف مرشد وداعية متفرغين لدعوة الناس إلى القاديانية، ونشاطهم الواسع يؤكد دعم الجهات الاستعمارية لهم.

هذا وتحتضن الحكومة الإنجليزية هذا المذهب وتسهل لأتباعه التوظف بالدوائر الحكومية العالمية في إدارة الشركات والمفوضيات وتتخذ منهم ضباطاً من رتب عالية في مخابراتها السرية.

نشط القاديانيون في الدعوة إلى مذهبهم بكافة الوسائل، وخصوصاً الثقافية منها حيث أنهم مثقفون ولديهم كثير من العلماء والمهندسين والأطباء. ويوجد في بريطانيا قناة فضائية باسم التلفزيون الإسلامي يديرها القاديانية" . انتهى .

هذا على مستوى المذاهب أما على مستوى المناهج فقد كانت حركة التغريب التي أدارها الغرب كفيلة بإنشاء جيل كامل من الإنجليز السمر كما يسميهم سيد قطب رحمه الله ، إلا أن تيار الجهاد العالمي استمر في صعوده رغما عن ذلك فاضطر الغرب إلى دعم مناهج موالية له ومدعومة أيضا من قبل وكلائه في المنطقة كالجامية والمداخلة وغيرهم ممن أوصت تقارير مركز " راند "
الأمريكي بدعمهم ومركز راند هو المركز الخاص بإعداد الدراسات الاستراتيجية الخاصة بالجيش الأمريكي ، ومازلنا نسمع ونرى ألوانا مختلفة من التجسس علينا ونحن لا نتحرك ساكنين كالميت بين يدي مغسله !

ومن أهم الأساليب كذلك ما يعرف بالتجسس الرسمي عبر الهيئات الدبلوماسية والمنظمات الدولية والمؤسسات الإعلامية والحقوقية والخيرية ! فالجاسوسية اليوم هي من أرقى الوظائف وأعلى المناصب ! وأصبحت الدول الإسلامية تستقبل الجواسيس وهي تعلم أنهم جواسيس وتقيم لهم حفلات الاستقبال والترحيب الحار وتنزلهم في أفخم الفنادق وتحت الحراسة المشددة لا لمنعهم من التجسس ولكن ليقوموا به على أكمل وجه ودون أي إزعاج ! فمفاتيح التجسس اليوم هي عبر مفتشي الأمم المتحدة ومندوبي الصليب الأحمر ومراسلي القنوات الفضائية وغيرهم ممن يمشطون البلدان عرضا وطولا ثم يعرجون على سفارات بلداهم لتقديم التقارير التي بحوزهم عن الأنشطة العسكرية والاقتصادية والدينية وغيرها ، فالحكومة الكويتية تعلم أن سفارة الاتحاد السوفيتي سابقا فيها ثلاثمائة موظف وهم بالطبع لا يقومون فقط بمتابعة شؤون رعاياهم والذين قد لا يبلغ عددهم نصف عدد الموظفين في السفارة !! ولو تابعت هذه الدول نشاطات تلك السفارات ومن يدخل إليها ومن يخرج منها لوجدت العجب ! ولكن العجب سيزول عندما نعلم أن كبار المتنفذين في حكومات تلك الدول هم أعضاء في المحافل الماسونية ونوادي الليونز واللوتاري الدولي وغيرها من الجمعيات الصهيونية العالمية التي تهتم بالطبقة العليا الفاسدة في كل بلد لتستغل مراكزهم ومعلوماتهم بصورة غامضة عبر جو من الإباحية والإلحاد واللذات المحرمة التي تستهوي أصحاب الفطر المنتكسة !

جاء في الموسوعة الميسرة عن اليهودية وما تفرع منها في تعريف جمعية أبناء العهد بناي برث :
"بناي برث جمعية من أقدم الجمعيات والمحافل الماسونية المعاصرة وذراع من أذرعتها الهدَّامة، ولا تختلف عنها كثيراً من حيث المبادئ والغايات إلا أن عضويتها مقصورة على أبناء اليهود، وخدمتها موجهة أساساً لدعم الصهيونية في العالم، والتقاط الأخبار واحتلال مراكز حساسة في الدول، ولهذه الجمعية فروع منتشرة في جميع أنحاء العالم، وهي مكلفة بدراسة نفسية كل قائد أو سياسي أو زعيم أو أي شخصية عامة للاستفادة من جوانب الضعف فيها ". انتهى .
وقد أغلقت المحافل الماسونية في مصر عام ١٩٦٥ بعد أن ثبت تجسسهم لصالح إسرائيل ، فلماذا لم تغلق بقية المحافل في الأردن وسوريا ولبنان والبحرين وتونس والمغرب والسودان ؟ أم أن هناك حسابات أخرى تدار مع دوران الكؤوس وتمايل الرؤوس .

وسوى الروم خلف ظهرك روم *** فعلى أي جانبيك تميل

وقد تمثل التجسس الرسمي في أقوى صورة أثناء تضييق العقوبات الدولية على العراق إبان حكم صدام حسين بين عامي ١٩٩٠ و ٢٠٠٣ والتي نفذ فيها الأمريكان أكبر عملية تجسس واختراق وتجنيد بعد الحرب الباردة ! وذلك عبر خبراء وكالة الطاقة الذرية ومفتشي الأمم المتحدة وشبكة ضخمة من العملاء تم تجنيدهم في تلك الفترة من خلال المعارضة العراقية في الخارج وعبر بعض القنوات الدبلوماسية في الداخل كان من آخرهم رئيس المخابرات السابق وفيق السامرائي الذي حدد للأمريكان أكثر من ٤٠٠ موقع لمنشئات حيوية وأمنية واستخبارية للنظام العراقي السابق ، وقد أثمر هذا الجهد الاستخباري المكثف عن دخول القوات الأمريكية لبغداد بعد ١٤ يوم فقط من بداية الحرب بلا أي خسائر حقيقية تذكر بعد أن غيرت بعض القطاعات العسكرية العراقية أماكنها وانسحبت من طريق الجيش الأمريكي حسب الاتفاق المسبق بينما تركت بعض الألوية كلواء حمورابي ولواء المدينة لتلقى مصيرها المشؤوم على أيدي القاذفات الأمريكية العملاقة البي ٥٢ ، ومازالت هناك بعض الشكوك حول التحركات والأوامر العسكرية التي صدرت من بعض القادة

وساعدت على سرعة تدمير الآلة العسكرية للجيش العراقي ولكن هكذا يحدث دائما عندما يكون المغفلين والعملاء على رأس الجيوش !

والغريب في الأمر أن هناك تقارير خرجت بعد انتهاء الحرب ذكرت أن بعض مراسلي القنوات الفضائية كان لهم أثر طيب في توجيه الضربات على بغداد وتقييم أثرها عبر أجهزة اتصالات الثريا من خلال الأقمار الصناعية ! وكل ذلك العمل كان يتم تحت أنظار المسؤولين العراقيين الذين لم يكونوا على علم بحقيقة هذه الاتصالات ولا مع من كانت !

ولم يقتصر العمل الاستخباري على الجهات الرسمية فحسب فقط كانت هناك مراكز دراسات استراتيجية وخبراء وباحثين يواكبون هذا النشاط الاستخباري ! ومن أغرب ما سمعت من هذه الدراسات هي دراسة خرجت في أواسط التسعينيات لأحد الخبراء الأمريكيين الباحثين في الشؤون العراقية ، فبعد أن أجرى مسحا شاملا للعرقيات والتوجهات والتقسيمات الشعبية والمذهبية في داخل العراق توقع في حالة حدوث تدخل عسكري أمريكي في العراق أن يؤيد الشيعة في الجنوب هذا التدخل وكذلك الحال بالنسبة للأكراد في الشمال وأن العلمانيين السنة والصوفية والعشائر البدوية لن يشكلوا أي مشكلة لأمريكا وسيتوافقون معها بشكل أو بآخر ، أما المشكلة فستكون في هذه النقطة بالتحديد – ووضع سهم على الخريطة – وذلك لوجود بداية مد وهابي في هذه المنطقة وهذا يشكل تهديد حقيقي للوجود الأمريكي . . . والحقيقة أن تلك المنطقة التي أشار إليها الخبير الأمريكي لم تكن سوى . . . الفلوجة !!

[٥] – خصائص شخصية العميل السري

يستدل علماء النفس على صلاحية الفرد لعمل معين من خلال ملامح الشخصية التي يمتلكها ، فملامح شخصية التاجر تختلف عن ملامح شخصية القائد العسكري، فالأول يحتاج إلى قدرة حسابية عالية وحرص وعناية بالمواعيد والمواسم وغيرها أما الثاني فيجب أن يكون لديه ذكاء نوعي وحزم وملكة قيادية تحكم جميع تصرفاته وهكذا مع الطبيب والمهندس وغيرهم لأن كل مهنة تتطلب شخصية معينة ذات قدرات وميول معينة لتتوافق معها وأي تناقض يحصل بينهما سيشعر صاحبه بأنه لا يصلح لهذا العمل أو أنه في المكان الغير مناسب لقدراته ، وقد توسعت الدراسات النفسية في وصف نمط الشخصيات المتوافقة مع بعض المهن واهتمت بأدق التفاصيل عن ذلك مثل مواعيد النوم وطريقة الأكل ونوع الطعام الذي يفضلونه ! وبما أن العمل الاستخباري مهنة من المهن التي يجب أن يتوافر في أفرادها صفات معينة لتتوافق مع طبيعة العمل فيجب أن نتعرف على هذه الصفات والملامح لنعرف مدى مطابقتها مع الشخصيات التي تتقدم لهذا العمل الخطير .

ومن عجائب القدر الذي أوقفني منبهرا أمام كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أنني قمت بعمل بحث في ملامح شخصية العميل السري تحت عدة نقاط قمت بترتيبها بعد جهد وتدقيق وطول تأمل وبحث وتهذيب ومراجعة واطلاع في بعض الكتب ، فلما انتهيت من كتابة البحث بعد عدة أيام أضفته إلى فقرات الرسالة ثم وقعت عيني على آية من كتاب الله كنت قد تنبهت إلى علاقتها بموضوع التجسس فدونتها في الملاحظات وهي قوله تعالى ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ فلما تأملتها هذه المرة وأعدت النظر وقلبته في الآية وقصة الهدهد مع الملك سليمان عليه السلام وإذا بي أجد كل النقاط التي أوردتها في البحث موجودة بين ثنايا الآيات !!! وجدتها بشكل أشمل وأعمق وأدق من كل ما كتبته في الرسالة وليس في موضوع البحث فقط ! فتملكني شعور غريب . . . مزيج من الفرحة والغبطة والذهول لا أعرف كيف أعبر عنه ولكني بعد هذا الموقف قد أفهم شعور علماء ملل الكفر الذين يعلنون إسلامهم

بعد أن يصطدموا بحقائق القرآن الكريم التي لخصت نتائج أبحاثهم العلمية عبر السنين الطويلة في كلمات معدودة وقبل أن يكتشفوها هم بألف وأربعمائة عام ! فسبحان من قال ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨].

وفيما يلي أضع بين يدي القارئ الكريم النقاط الأولى عن ملامح شخصية العميل السري التي كنت قد كتبتها قبل اطلاعي على الآيات التي حكت قصة الهدهد ثم أعقبها بالنقاط التي استخرجتها من القصة لنقف سويا على وجه من وجوه العظمة في الكتاب الذي لا تنتهي معجزاته ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص :٨٧-٨٨].

[أ] مميزات شخصية العميل السري

١ – الإيمان الراسخ

وحده الإيمان من يدفع صاحبه إلى تحدي الصعاب وتحمل مشاق الطريق في صبر وثبات ويقين ، والعميل السري إنسان يعتريه ما يعتري بني البشر من الضعف والخوف والملل ، فإن لم يكن لديه إيمان يشعره بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقة فقد يستسلم من أول الطريق ! فالإيمان هو الدافع الأساسي له في العمل وهو شرط الاستمرار فيه وهو الواقي له من كل شر ، ولا أجد مثل وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس كمنهج إيماني يغذي التوكل واليقين الصادق في قلب كل مجاهد ، روى الترمذي وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لابن عباس وهو مردفه : ((يَا غُلامُ إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهِ تَجِدْهُ تِجَاهَكَ ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)) .

٢ – الصدق

التقارير التي يبعث بها العميل السري بمدى مطابقتها للواقع – المصداقية – فإن كان فيها تضليل أو كذب أو معلومات مغلوطة كانت وبالا على العمل الاستخباري برمته ! وقد أوصى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائده سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو في القادسية فقال إذا وطئت أدنى أرض العدو، فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعض، والغاش عين عليك وليس عيناً لك!

٣ – الذكاء الخارق

الجاسوسية لعبة الأذكياء فقط ! لأنها تعتمد على الدهاء والمكر وحضور الذهن وقوة الذاكرة وغيرها من الصفات العقلية المطلوبة في العميل الجيد ، فكثير من المواقف المفاجأة لا يخرجك منها بعد الله تعالى إلا سرعة البديهة وحسن التصرف وإلا فإنك ستكون محط شك وريبة لمن حولك ، وتأمل في ردة فعل الصحابي حذيفة بن اليمان في هذا الموقف الخطير بعد أن أرسله النبي صلى الله عليه وسلم ليتجسس على الأحزاب لتعرف قيمة هذه الميزة في العمل الاستخباري فلو أن حذيفة تأخر عن ردة الفعل السليمة والسريعة لكانت السيوف أقرب إليه من أي شيء آخر ! ففي صحيح مسلم عن محمد بن كعب القرظي قال :((قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله أرأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ؟ قال : نعم يا أبن أخي . قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجتهد : قال : والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا ! . قال : فقال حذيفة : يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال : " من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع "؟ فشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة ،" أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة " فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد فلما لم يقم أحد دعاني ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني ، فقال : " يا حذيفة

اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا " قال : فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه . قال حذيفة :((فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت : من أنت ؟ قال فلان بن فلان)) ؛ ثم قال : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل . ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضرب فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي : لا تحدث شيئاً حتى تأتيني .لقتلته بسهم)) .انتهى.

وقد ذكر النويري في صبح الأعشى بعض الصفات اللازمة في رجل المخابرات ١٢٣/١ : "أن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة، ليتوصل بدهائه الى كل موصل، ويدخل بحيله في كل مدخل ويدرك مقصده من أي طريق أمكنه فإنه متى كان قاصراً في هذا الباب أوشك أن يقع ظفر العدو به أو يعود صفر اليدين من طلبته" .انتهى.

٤ – الشجاعة

ونقصد هنا الشجاعة القلبية على وجه التحديد والتي تؤهلك إلى اقتحام بعض المخاطر بقلب ثابت وبدون ارتباك ، ويظهر أثرها بشكل واضح في العمليات الجريئة التي يطلب فيها من العميل السري اختراق بعض الأماكن المحظورة لتصوير بعض المنشآت أو للتفتيش في ملفات بعض المسؤولين لحظة غيابهم ، فالجبان لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في هذا الاتجاه ! والحقيقة أن الكلام النظري شيء والتجربة العملية شيء آخر ، وقد تخدع الشجاع نفسه وتجبن في هذه المواقف فيجب أن ينمي داعي الشجاعة في قلبه ويتعاهد نفسه بخوض المخاطر حتى لا تجبن وقت اللقاء كما قال الأول : أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلن أو لتكرهنه إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالي أراك تكرهين الجنة ! .

٥ – القدرة على بناء العلاقات والإندماج في المجتمع

الجاسوسية كمهنة لا يمكن لها النجاح إلا عند الاندماج الكامل للجاسوس في المجتمع – بيئة التجسس – فيكون له زملاء في العمل وأصدقاء في النادي وشركاء في التجارة ونشاطات اجتماعية في الحي الذي يسكن فيه ، وذلك يعتمد بدرجة كبيرة على قدرته الشخصية في بناء العلاقات المختلفة وخاصة مع الشريحة التي يدور حولها العمل الاستخباري ، فالشركات الكبرى لاتضع في قسم التسويق أو العلاقات العامة إلا الموظفين ذوي البراعة الفائقة في كسب ثقة الزبائن وبناء العلاقات التجارية معهم ، وكذلك العميل السري يجب أن يتمتع بقدرة على جذب الفئات المستهدفة من عملية التجسس وبناء علاقات متينة معها .

٦ – القدرة على التمثيل

تختلف كل شخصية وظيفية عن الأخرى بمجموعة سمات يعرف من خلالها أن هذا صحفي لأنه يتصرف كالصحفيين من حيث كثرة الأسئلة أو الشغف بالمعلومات ! أو أنه ضابط في السلك العسكري لأنه يتصرف كالعسكريين من ناحية الحزم والانضباط في الحركة ولو كان بين أهله ! وكذلك الحال مع أي شخصية يطلب من العميل السري أن يتقمص دورها ، فإن طلب منه أن يكون رجل أعمال فيجب أن يتصرف كرجل أعمال وهذه تحتاج القدرة على التمثيل الجيد للشخصية الجديدة وهذا يتطلب فترة من الإعداد والتمرين ليتعود الجاسوس على الدور الجديد فيكون مظهره واهتمامه وتصرفاته تدل على أنه رجل أعمال ، وقد كانت هناك عملية كبيرة ضد المكتب التجاري اليهودي في الدوحة عام ٢٠٠٠ للميلاد ، وقد دفع النقص في بعض المعلومات حول المكتب المجاهدين إلى إرسال أحد العملاء السريين على أنه رجل أعمال خليجي ليقيم في أحد الفنادق الذي كان يعقد فيه مؤتمر خاص بالشركات اليهودية المتعاملة مع المكتب التجاري ، وقد نجح الأخ في تقمص هذا الدور واستثمار ذلك على وجه مناسب ، ومع أن العملية لم تنفذ لأسباب خارجية إلا أن الخطوة الاستخبارية الأولى كانت ناجحة وبتمثيل جيد .

٧ – الفراسة

روي عن محمد بن الحسن و الشافعي أنهما كانا قاعدين بفناء الكعبة، فمر رجل فقال أحدهما لصاحبه: تعال حتى نزكن – نتفرس – على هذا الرجل الآتي أي حرفة معه ، فقال أحدهما: خياط، وقال الآخر: نجار، فبعثنا إليه فسألاه، فقال: كنت خياطاً وأنا اليوم نجار، وكذلك قال الربيع : مر أخي في صحن الجامع فدعاني الشافعي ، فقال: يا ربيع ! هذا المار الذي يمشي أخوك؟ قلت: نعم. ولم يكن رآه قبل ذلك ! .

يحتاج الجاسوس إلى نوع تفرس وخبرة في طباع الناس ومعادن الرجال ، فليس كل الناس سواسية فهناك من تستطيع خداعة بأبسط الحيل وهناك الداهية الذي لا تنطلي عليه الأمور بسهولة وهذا النوع من الرجال خطير ويجب البعد عنه لأنه الوحيد الذي قد يشعر أنك تتصنع ولست على حقيقتك ! وقد يدفعه ذلك إلى الاستقصاء عنك أو التحذير منك على أقل تقدير ، إذا فالفراسة هي الميزة التي تؤهلك لاختيار الصيد السهل والمناسب وهي أيضا التي تولد عندك (حساسية أمنية) ضد أي مجهول لا تطمأن إليه .

٨ – السرية التامة

إن السرية التي يعمل من خلالها العميل لا تقتصر على صيانة المعلومات وعدم إشاعتها بل تتعدى إلى الإهتمام الشديد والحذر من كل ما يفهم منه أنه مهتم بشيء ما أو يخفي شيء ما أو يبحث عن شيء ما ؟ فكثير من الناس لا يبوحون بأسرارهم لأحد ولكن طريقة تصرفاتهم توحي بأنهم يخفون شيئا ! وهذا ما يجب على العميل السري أن يحذر منه ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على هذه السرية في كل خطواته العسكرية والعمل الاستخباري الذي يسبقها كما في أول سرية بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم في الإسلام وهي سرية نخلة فقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم لأمير السرية عبدالله بن جحش كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير مسيرة يومين ، فوجد فيه ((إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم)) وكان هذا الأمر من النبي صلى الله عليه وسلم زيادة في التحفظ والسرية على أهداف

السرية حتى من الأفراد الذين يخرجون فيها وذلك لأن أحد هؤلاء قد يبوح لزوجته أو أحد أقربائه عن وجهته وهو يودعهم فينتقل ذلك إلى أحد عيون المشركين في المدينة أو اليهود الذين هناك فيعملون على إفشال مخطط النبي صلى الله عليه وسلم ، وما زالت الجيوش الحديثة تستخدم هذا الأسلوب في السرية – الرسائل المقفلة – في توجيه وحداتها العسكرية كما في الطلعات الجوية الحساسة التي يعطى فيها الطيار ظرف مختوم لا يفتحه إلا بعد الإقلاع ليعرف المهمة التي سيقوم بها وذلك إمعانا في السرية التامة اللازمة لمباغتة العدو .

[ب] خصائص شخصية العميل السري من قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ *وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ * أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ

الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [سورة النمل: من ١٥ : ٤٤]

١ – أهمية العمل الاستخباري

لقد هم سليمان عليه السلام أن يعذب الهدهد عذابا شديدا أو أن يذبحه إن لم يكن له عذر في تغيبه عن الحضور ، فلما أتاه بـ ﴿سُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وهو العمل الاستخباري المتقن الذي قام به الهدهد في مملكة سبأ كان ذلك سببا في إكرامه وتقريبه وأن يكون السفير الذي يحمل رسالة سليمان عليه السلام لملكة سبأ ، وفي ذلك تكريم له وزيادة فضل على بقية أقرانه من الطير الذين يعملون أيضا لسليمان عليه السلام ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾وقد كان أول ما قاله الهدهد لسليمان عليه السلام ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ وذلك تبيينا لدوره المهم في تأمين المعلومات الاستخبارية الضرورية لتحديد سياسة المملكة الخارجية .

٢ – الشيفرة السرية

وتمثلت هنا في لغة الهدهد وهي لغة الطير الذي لا يفهمها إلا رئيسه في العمل وهو سليمان عليه السلام لأن الله علمه ﴿ مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ وكذلك الشيفرة التي يستخدمها العميل السري المثالي يجب أن تكون من السرية بحيث لا يفهمها ويفك رموزها سوى المسؤول المباشر للعميل .

٣ – عدم البطء في التواصل مع المرؤوسين

وذلك حتى لا تدب الشكوك عند القيادة في أن العميل قد قبض عليه أو كشف أمره ، وقد راعى الهدهد هذا الجانب ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي مدة غير طويلة من الزمن .

٤ – القدرة على الوصول إلى الهدف

نجح الهدهد في اختراق ودخول أماكن صنع القرار وتمثلت هنا في قصر ملكة سبأ ، وذلك لأنه طائر لا يستغرب وجوده في هذه الأماكن ولا يخشى منه إن اقترب منها بعكس لو كان بقرة أو خروف فإنه سيمنع من الاقتراب من القصر أو لو كان حشرة لأنه غالبا سيصفع بالنعال أو يهش عليه بغيرها ، ولكنه هدهد لطيف يفرح برؤيته ويأنس بالقرب منه ، وكذلك العميل السري يجب ألا يستغرب وجوده في المكان المراد التجسس عليه وأن لا يرفض وجوده في ذلك المكان ، كأن يكون أحد الموظفين فيه ويجب كذلك أن يحظى بثقة العاملين معه حتى لا يتحرزوا من الكلام في حضرته ، وهذا يتطلب قدرة كبيرة على بناء العلاقات الاجتماعية اللازمة للعمل الاستخباري .

٥ – التثبت من المعلومة

وقد كان ذلك واضحا من قول الهدهد ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾قال ابن كثير : أي بخبر صدق حق يقين . وكذلك العميل السري يجب أن يكون في تحريه للمعلومات وتثبته منها وإبلاغ المسؤولين بدرجة مطابقتها للواقع .

٦ – الوصف الدقيق

وذلك من قوله ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ فقد أتى الله سبحانه وتعالى بوصف مجمل محكم على لسان الهدهد للوضع السياسي لمؤسسة الحكم في مملكة سبأ ، وذلك بأنهم تحكمهم امرأة ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ وفي ذلك دلالة على ضعف عقولهم ، ولها صلاحيات واسعة ونفوذ وقوة مالية ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ وهذا الثراء الفاحش ساعدها على بناء مقر حكمها بشكل مثير للإعجاب ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ قال ابن كثير : يعني سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ . والوصف الدقيق بالعبارات الواضحة والدالة على حقيقة المعلومة ضروري جدا في التقارير التي يرسلها العميل كي لا يدخل الشك على مرؤوسيه من بعض الكلمات المبهمة أو التي قد تحتمل معنيين في آن واحد .

٧ – المعلومة الاستخبارية المهمة

وتمثلت في قول الهدهد ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ فهذه المعلومة هي التي جذبت اهتمام سليمان عليه السلام وكذلك العميل السري يجب أن يقدر قيمة المعلومة الاستخبارية التي يحصل عليها قبل أن يقرر إرسالها وذلك من خلال السياسة العامة التي ترسم له من قبل القيادة والتي تحدد النقاط التي هي محل الاهتمام .

٨ – طرح الحلول والاقتراحات والتوصيات المناسبة

طرح الحلول والاقتراحات والتوصيات المناسبة لكل حالة حسب ما تقتضيه المصلحة طبقا لمشاهدات العميل الشخصية ودراسته للواقع ، وقد جاء ذلك في إرشاد الهدهد إلى ما ينبغي أن يتبعه أولئك القوم﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النمل : ٢٥]

٩ – الصدق

وهو شرط أساسي في العميل السري فلا خير يرجى من عميل كاذب ، والناس يختلفون في مراتب الصدق ((لا يزال المرء يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا))منهم من يسلم من الكذب ولكنه يقع في المبالغات وعرض الأمور تبعا لانطباعاته الشخصية التي قد تكون مغايرة للواقع ، فقد يكون حبك للشيء أو بغضك له دافعا قويا لتحريفك للحقيقة من غير أن تشعر بحقيقة هذا التحريف ، ولأهمية هذا الأمر وما يترتب عليه أراد سليمان عليه السلام التأكد والتثبت من صدق الهدهد فيما جاء به فقال ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وقد تبين له صدق المعلومات التي وردت في تقرير الهدهد عن مملكة سبأ .

١٠ – الدافع الإيماني

إن معرفة العميل السري بمداخل الشيطان عليه وتحرزه منها وتغذية الوازع الإيماني في قلبه يحول بإذن الله تعالى دون وقوف الشيطان في طريقه ، وقد تفجرت معاني الغيرة الإيمانية وتعظيم الله تعالى عند الهدهد لما رأى الناس منصرفون لعبادة غير الله تعالى ، ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل : ٢٤:٢٦]

١١ – التقية

لقد شاهد الهدهد في رحلته إلى سبأ منكرا عظيما لا يسع من في قلبه الإيمان السكوت عنه ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ولكن ظروف العمل الاستخباري الذي يتطلب استخدام التقية في أوقات مختلفة وعدم إحداث ما يفهم منه إنكار أحوال معينة جعل الهدهد يكتم ما في صدره ولا يبوح به لأحد حتى يعرضه على سليمان عليه السلام .

١٢ – السرية التامة

قال سليمان عليه السلام للهدهد ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ نلاحظ هنا أن سليمان لم يبلغ الهدهد بفحوى الكتاب حتى ألقاه على الملكة ، وهذا من الحزم والضبط الشديد اللازم في العمل الاستخباري والهدهد بدوره لم يفتح الرسالة التزاما منه بهذه السرية التامة في كل خطوات العمل الاستخباري .

١٣ – تنفيذ العمليات الاستخبارية الغير معلوماتية

أوكل سليمان عليه السلام للهدهد مهمة أخرى لا تقتصر فقط على التجسس فقال﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ فأمره بإيصال رسالة إلى ملكة سبأ دون أن تشعر به ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا ﴾وتعتبر هذه السفارة مهمة أخرى بنيت على معرفة الهدهد بشؤون قصر الملكة ومعرفته التامة بمواعيد وأماكن تواجد الملكة داخل أروقة القصر ، وقد أبدى الهدهد مهارة أخرى في هذه المهمة أيضا .

١٤ – قياس ردات الفعل

أمر سليمان عليه السلام الهدهد بعد أن يلقي الرسالة ويختفي عن الأنظار أن يسجل ملاحظاته لردة الفعل ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ومهمة قياس ردات الفعل السياسية أو العسكرية وتوقعها بناء على المعلومات الاستخبارية تنبع من عمق إدراك العميل السري للوضع العسكري والسياسي والاجتماعي للمنطقة التي يعمل فيها بما أنه يتعايش ويطلع على كل المؤثرات بصورة مباشرة ، ولذلك يطلب رأيه في معرفة احتمالية حدوث تدخل عسكري في حالة معينة أو معرفة حقيقة الرأي العام الداخلي في الدولة المعادية تجاه قضية ما وهكذا .

١٥ – الذكاء الخارق

لقد اتضح من المواقف المختلفة التي مر بها الهدهد في هذه القصة في مملكة سبأ ثم في حضرة سليمان عليه السلام ثم في المملكة مرة أخرى ، وطريقة وصفه لمشاهداته وتحليله لذلك أنه يمتلك

نوع ذكاء وإدراك مميز للأمور وهي ميزة أساسية في العميل السري ، وقد ورد في تفسير (في ظلال القرآن) لسيد قطب رحمه الله إشارة لهذا المعنى في تصرفات الهدهد وذلك بقوله : " ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب ، صاحب إدراك وذكاء وإيمان ، وبراعة في عرض النبأ ويقظة إلى طبيعة موقفه وتلميح وإيماء أريب " .

١٦ – الشجاعة

إن الأسلوب الواثق الذي تكلم به الهدهد في حضرة سليمان عليه السلام وقوله ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ يدل على شجاعته الأدبية الكبيرة ، ووصوله لقصر الحكم في سبأ للتجسس ثم عودته في مهمة أخرى هي أكثر خطورة من المهمة الأولى يدل أيضا على شجاعة قلبية بالغة لا يستغني عنها أي عميل مثالي في أداء مهمته بنجاح .

١٧ – القدرة على التمثيل

وقد تمثل ذلك في عدم شك أي شخص في تصرفات الهدهد الذي كان يمثل أنه هدهد عادي كأي هدهد في العالم ، وفي قدرته على إلقاء الرسالة دون أن يشعر به أحد كما ذكر في بعض التفاسير .

١٨ – الفراسة

إن العبارة التي استخدمها الهدهد في إيقاف زخم الغضب الشديد الذي اعترى سليمان عليه السلام إثر تغيبه عن الموكب تنم عن نوع فراسة وفطنة ، فالهدهد قد أدرك من الوهلة الأولى أن سليمان في حالة من الغضب وأن هذه الحالة لا يصلح معها إلا دفعها بشدة عبر توجيه وجذب اهتمام الملك إلى أمر أعظم خطورة مما يشغل باله وينسيه ما هو فيه من غضب ولذلك قال ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ ولا يخفى ما في هذه العبارة من الجرأة على مقامي النبوة والملك ! وعلى حالة الغضب التي يمر بها سليمان عليه السلام ، ولكن فراسة الهدهد جعلته يهتدي إلى هذه الطريقة ليخرج بها من غضب الملك وليعرض من خلالها بضاعته الاستخبارية القيمة ﴿ وَجِئْتُكَ

مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ ثم شرع بالتفاصيل وهذا ما يعرف بأسلوب اللف والنشر ، وقد أنهى الهدهد كلامه أمام أعظم ملوك الأرض سليمان عليه السلام بقوله﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو تنبيه ذكي ولطيف من الهدهد للملك سليمان ، فالله عز وجل مع عظم عرشه وملكه وجبروته لم يأخذ قوم سبأ بغضبه وسطوته على ما تجرؤا عليه من الشرك العظيم وهو الرازق لهم والمنعم عليهم بل أمهلهم حتى أسلموا لدين الله ، فحري بالمبلغين عنه وهم أنبياؤه وصفوة خلقه أن يتحلوا بهذه الصفات الربانية وألا يسبق غضبهم حلمهم ! ويالها من خطبة بليغة ويالها من فراسة حميدة ! .

١٩ – روح المبادرة

قال الله تعالى ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ* فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل ٢٠ ،٢١ ،٢٢] يتضح من سياق الآيات أن المهمة الاستخبارية التي قام بها الهدهد لم تكن عن إذن سليمان عليه السلام ولا عن علمه ! إنما بمبادرة شخصية من الهدهد الذي رأى أن في مراقبة ونقل مثل هذه المعلومات مصلحة راجحة على حضور موكب سليمان عليه السلام ، وتصرف الهدهد على هذا النحو يدل على أنه يمتلك روح مبادرة عالية جدا قادته لاقتناص هذه الفرصة الثمينة التي دخلت بسببها أمة كاملة في دين الله تعالى ، فالفرص كالسحاب لا تدري متى ينشأ ! والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، والعميل السري المثالي هو من يستغل الفرص التي تمر من بين يديه أو يبادر لاقتناصها قبل أن تضيع منه ، فهناك كثير من المواقف لا يوجد متسع من الوقت لأخذ الإذن عليها لأنها تتطلب من العميل معالجة فورية وما فعله الهدهد هنا خير مثال على ذلك .

٢٠ – الشعور بالمسؤولية

إن الشعور بالمسؤولية تجاه قضايا الأمة المصيرية يولد دافعا قويا نحو العمل بجد ونشاط ، والهدهد في هذه القصة دفعه شعوره بالمسؤولية تجاه دينه الذي يؤمن به ومليكه الذي يعمل بإمرته أن يقوم

بهذه المهمة التي قد يستغرب منها المرء ويقول : ما شأن الهدهد وهو طير من الطيور بقضية التوحيد التي استثارته مخالفة أهل سبأ لها فلم يستطع السكوت عن ذلك ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ وشعور العميل السري بالمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه وأن هناك كثير من المصالح قد تفوت على الأمة بتهاونه في العمل وأن الكثير من الويلات يمكن أن تقع تبعا لذلك يجعله يتصرف من مركز المسؤولية كالأب الذي يحوط أبنائه برعايته ونصحه وحمايته دون أجر على ذلك لأنه راع وكل راع مسؤول عن رعيته .

٢١ – التخصص المساند

جاء عند ابن كثير عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندسا يدل سليمان عليه السلام على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض ، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ويعرف كم مساحة بعده عن وجه الأرض .انتهى كلامه . وهذا التخصص الذي تميز به الهدهد ساعده في أمرين هنا ، الأول تنبيه سليمان عليه السلام أن ملكة سبأ تمتلك عرش عظيم صمم بطريقة هندسية بديعة ، قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم وكان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من مشرقه ومثلها من مغربه وقد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحا ومساء . وقد تنبه الهدهد لذلك بحكم اختصاصه الهندسي فقال ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أما الأمر الثاني فقد قال الهدهد بعدما أنكر الشرك الذي رآه من قوم سبأ ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ جاء في التفسير : أي يعلم كل خبيئة في السماء والأرض ، قال ابن كثير : وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها .

[ج] سـمات شخصـية المسـؤول المباشـر عـن العميـل السـري مـن قصـة سـليمان والهدهد

يرتبط كل عميل سري بمسؤول مباشر بحيث يكون هناك ضابط استخبارات مستقل لكل عميل أو مجموعة عملاء سريين في منطقة معينة ليشكلوا بذلك فريق عمل متجانس ولكي لا يحدث أي اضطراب عند العميل إن تم تحويله في كل مرة من ضابط إلى آخر لا يعرفه أو لم يعمل معه من قبل لأن ذلك قد يحدث عنده شيء من عدم الثقة في قيمة التوجيهات التي تصدر إليه منه ، وبما أن العميل السري لا يستغني عن قاعدة خلفية في عمله الاستخباري تكون له كمرجع للتخطيط والتقييم والإمداد المالي والتقني وأيضا للإخلاء السريع في حالة حدوث خطر أمني يهدد حياته ، فيجب تبعا لذلك أن تكون هذه القاعدة الخلفية — المسؤول المباشر – على قدر من الصفات التي تؤهله لهذه المهمة كما هو الحال مع الصفات التي يجب أن تتوافر في العميل نفسه ، ونعود الآن إلى قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام لنحاول الكشف عن ملامح شخصية المسؤول المباشر عن العميل السري – الهدهد – وهو ما تمثل في شخصية سليمان عليه السلام .

١ – المتابعة المستمرة

بدأت قصة الهدهد بقول سليمان عليه السلام ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ وهذا يدل على متابعة سليمان عليه السلام لأحوال جنده من الجن والإنس والطير ، ولأن ذلك الهدهد معروف لدى سليمان بصفته الشخصية فقد افتقده أثناء تفقده الموكب الذي يضم بقية الجند ، وهذه المتابعة التي أبداها سليمان عليه السلام ضرورية جدا في العمل الاستخباري الذي يضم عدة أطراف كما هو الحال هنا بين سليمان عليه السلام والهدهد وأي خلل في هذه المتابعة سيعطي طابع من اللامبالاة على روح العمل وهذا سينعكس على نتائجه بكل تأكيد ، ومما يشار إليه هنا أن المتابعة إنما تكون من القاعدة الخلفية أي أن المتابع وهو المسؤول المباشر يكون في البلد الأم لأنه الطرف الذي يجب أن يكون في مأمن من الخطر الخارجي

وفي ذلك فائدة كبيرة تعود على العمل الاستخباري ، لأن القبض على أحد العملاء السريين من قبل الأعداء قد يربك ويكشف بعض الخطط والأسماء ولكن القبض على المسؤول المباشر قد يؤدي إلى القضاء على العمل الاستخباري برمته لأن المسؤول المباشر هو من تجتمع عنده جميع حلقات العمل الاستخباري بما فيها الخطط المستقبلية والخلايا النائمة وغيره وهنا تكمن الخطورة ، وقد تمثل ذلك في متابعة سليمان عليه السلام لعمل الهدهد من قاعدته وعاصمة مملكته في فلسطين .

٢ – الحزم

لقد أثبتت التجارب أن الحزم صفة أساسية في كل قائد ناجح سواء كانت هذه القيادة في الأعمال المدنية أو العسكرية ، فالحزم الذي تبدى في شخصية سليمان عليه السلام أدى إلى ضبط نظام جنده الذي يتألف من أجناس مختلفة ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ وقوله ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ أي يتبع بعضهم بعضا ، وهذا الضبط الشديد يدل على الحزم والإدارة الجيدة ، أما قوله بشأن الهدهد ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فهو حزم أشد ولكن بدون تعدي وتجاوز للعدل لأنه ربط ذلك بقوله ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فالقوة التي امتلكها سليمان وسخرت له لم يعرف في التاريخ أنه امتلكها أحد من قبله ولا من بعده وذلك استجابة لدعائه المذكور في سورة ص﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص : ٣٥] وهذه القوة الغير مسبوقة قد تغر صاحبها وتدخل في نفسه الكبر وتدفعه نحو الاعتداء والظلم كما هو الحال مع كثير من القادة العسكريين الذين يبطشون بمن يخالف أوامرهم العسكرية أو يقصر فيها ، وكثيرا ما تكون عقوبة الإعدام في حق المتغيبين عن التجنيد الإلزامي كما كان الحال في الحرب العالمية الأولى التي يعدم فيها المتغيب عن القتال ، أو في حق القادة العسكريين الذين يخفقون في تحقيق النصر في المعركة كما كان الحال في مرحلة من مراحل الدولة العثمانية التي كان يستدعي فيها رئيس الوزراء أي قائد عسكري يخفق في تحقيق النصر لينزل به عقوبة الإعدام ! أما سليمان عليه السلام فلم تدفعه القوة التي سخرها له الله إلى شيء من ذلك واكتفى بإظهار الحزم اللازم لاستمرار العمل ونجاحه .

٣ – التفهم

قابل الهدهد غضب سليمان عليه السلام وتوعده بقوله ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ وهي عبارة قد توحي بشيء من التطاول وسوء الأدب مع مقامي النبوة والملك ، ولكن التروي الذي تحلى به سليمان عليه السلام جعله يتفهم الظروف التي مر بها الهدهد من طول السفر ومشقته وخطر المهمة والمعلومات التي بحوزته ، فالهدهد يرى أنه محسن وأن من حقه أن يقابل بالإحسان على إحسانه لا بالتهديد والوعيد ! هذا التفهم الذي أبداه سليمان عليه السلام في هذا الموقف هو ما دعاه إلى الحلم وعدم المسارعة في الرد على طريقة الهدهد في الكلام معه ، والعميل السري إنسان كغيره يمر بظروف نفسية مختلفة قد تجعله يبطأ في عمل ما أو يحجم عن آخر أو أن يحتاج إلى راحة من ضغط العمل وغيرها من الأمور التي تتطلب تفهم من المسؤول المباشر له كي لا يطغى جانب على جانب فيؤثر ذلك على العمل نفسه وحتى لا يشعر العميل السري أن هناك نوع أنانية في التعامل معه فهذا الشعور قد يكون فيه مدخل للشيطان عليه لأن الأخلاق العالية ومقابلة الإساءة بالإحسان والتفهم الذي نبديه لمن يعمل معنا ولو تجاه مشاكلهم الشخصية هو ما يساعدهم في الاستمرار في العمل بجد ونشاط وحب أخوي متبادل بين الجميع وهذه هي روح العمل التي يجب أن تسود بين أعضاء فريق العمل الاستخباري .

٤ – التثبت

قال سليمان عليه السلام بعدما استمع إلى التقرير الذي قدمه الهدهد عن الأوضاع في سبأ ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ وهذا يدل على التثبت الذي يلتزمه سليمان عليه السلام في التأكد مما ينقل إليه من الأخبار وإمعانا في هذا التثبت أمر الهدهد بإلقاء الرسالة على النحو المذكور ليرى حقيقة الأمر هناك ، وتتبع أجهزة الاستخبارات العالمية وسائل مختلفة للتثبت من المعلومات التي تأتيهم عن طريق الجواسيس حتى لا يقعوا في فخ المعلومات المضللة التي قد تبث من أجهزة معادية عن طريق نفس الجواسيس بشكل عكسي فينقلب السحر على الساحر أو عندما يكون العميل مزدوجا

ويعمل لعدة أطراف في وقت واحد ! وهذا التثبت قد يأخذ شكل حزمة من الإجراءات وقد يكتفي بإجراء واحد وفعال وهو ما فعله سليمان عليه السلام لما أمر بإرسال تلك الرسالة .

٥ – السرية التامة

قال سليمان عليه السلام للهدهد﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ وقوله ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يدل على السرية التي اتبعها سليمان عليه السلام في عملية جس نبض الملكة ، لأن الملكة قد تخفي شيء إن كانت الرسالة عن طريق سفير رسمي ولا تصرح بحقيقة نواياها ، والسرية كما هي شرط لعمل العميل السري فهي شرط كذلك لعمل المسؤول المباشر عنه لأنهم جزئين في عملية مشتركة يستدل على الأول بالثاني وبالعكس ، فيجب مع هذه الصورة أن تكون طريقة التعامل بينهم مبنية على السرية التامة في كل خطوات العمل الاستخباري ، والذي يفهم من أمر سليمان عليه السلام للهدهد ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أن سليمان لم يأذن للهدهد في معرفة فحوى الكتاب إلى وقت توصيله وذلك إمعانا في السرية وفي صيانة المعلومات من خطر التسريب .

٦ – استثمار المعلومات

توفرت لدى سليمان عليه السلام معلومات هامة عن الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني عن مملكة سبأ من خلال التقرير الرائع الذي قدمه الهدهد ، فبنى على أساسه خطته في دعوة الملكة وشعبها لدين الله تعالى عن طريق الرسالة التي أرسلها مع الهدهد وهذه الرسالة سوف تكشف له عن شيئين ، الأول صدق المعلومات التي أوردها الهدهد عليه والثاني نوايا الملكة تجاه الرسالة وهو الأمر بالرضوخ والحضور بين يدي سليمان عليه السلام أي أن الرسالة كانت بمثابة خطة لجس النبض ، فإن كانت الملكة تنوي الخداع وإظهار الرضوخ حتى تستعد للحرب وتكسب الوقت اللازم لذلك فسينقل الهدهد ذلك من غير أن تدري هي ولا حاشيتها ، ولذلك أمر سليمان الهدهد أن يخفي وجوده حتى لا يشعر به أحد كما جاء في بعض التفاسير ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ

عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ وإن كانت نوايا الملكة سلمية كما اختارت هي من إرسال الهدية لكسب ود سليمان عليه السلام فهذا يوفر على سليمان إرسال الجيوش الجرارة لبلادها ويجعله يرسل رسالة تهديد أخرى أشد لهجة من الأولى لتلغي أي محاولة من جانب الملكة للمراوغة وترغمها على الحضور ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ وبعد نجاح هذه الرسالة في تحقيق الأثر المطلوب وهو الرعب الكبير الذي أحدثته في قلب الملكة علم سليمان عليه السلام بتحرك موكبها نحوه وعندها أمر بإحضار عرشها الذي وصفه الهدهد سابقا بقوله ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ ليكون أمامها مع أنها قد تركته في قصرها بعد أن أقفلت من دونه الأبواب فتعلم عندها علم اليقين أنها أمام ملك عظيم ذا قوة رهيبة تأتمر بأمره جنود الجن والإنس والطير وله من الملك والقوة ما هو أعظم مما كانت تتباهى به ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ وهذا الملك بهذه العظمة وتلك القوة والمهابة ما هو إلا عبد لله تبارك وتعالى ! وعند هذه اللحظة الحاسمة دخل الإيمان إلى قلب الملكة ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

والمتتبع للإجراءات التي اتخذها سليمان عليه السلام في هذه القصة يرى أنه يمتلك قدرة عجيبة في استثمار المعلومات وتوظيفها التوظيف السليم ، وهذا الاستثمار الجيد للمعلومات هو المرحلة الأخيرة من مراحل العمل الاستخباري والذي يحكم بناء على نتائجه في نجاح العملية الاستخبارية أو فشلها وقد كان النجاح حليفا للملك سليمان عليه السلام وعميله السري الهدهد في هذه المهمة العجيبة !

وبهذا تنتهي مهمة الهدهد بنجاح باهر بعد دخول الملكة بلقيس وشعبها في دين الله تعالى بعد رحلة استخبارية مثيرة كان بطلها مجرد هدهد من الهداهد . . ولكنه أتى من سبأ بنبأ يقين !

[٦] – ٣٧ فائدة في الإستخبارات

١ – خطر ترك بعض الطاعات الظاهرة على فساد القلب

انتبه إلى أن هذا البحث مبني على الرخص الشديدة لمثل هذه الحالة الاستثنائية ، ومن واقع التجربة الشخصية فليس كل أحد مؤهل لتقمص هذا الدور دون أن تكون لديه قابلية في التعاطي مع كل المتغيرات التي تحيط به فمسألة الضعف الإيماني المصاحبة لجو المعاصي المحيط بالعميل السري يجب أن تعالج فورا قبل أن يستسلم العميل للمغريات والشهوات من حوله ، فيجب أن يقوم العميل بعملية تعويض عن تلك الطاعات الظاهرة بطاعات قلبية أو سرية بينه وبين نفسه ولا أجد مثل الدعاء والتضرع بين يدي الله في كل ليلة وأقول في كل ليلة حتى يحافظ على الصلة الوحيدة التي تجسد حقيقة إيمانه بعد أن ترك صلاة الجماعة والصدقة وزيارة المقابر وحضور المواعظ وغيرها ، فقد يضعف الجاسوس تدريجيا من الناحية الدينية من حيث لا يشعر ولذا يجب أن يكون صادقا مع نفسه ويحاسبها أولا بأول ، كأن يقول لماذا قمت بإشعال سيجارة في هذا المكان أو سماع موسيقى أو غيره من غير حاجة كأن يكون بمفرده ويسكن بعيدا عن الناس ولا يوجد خادم أي لا يوجد سبب يدعوه للتمويه بمثل ذلك فإن كان ذلك عن شهوة من نفسه لأنها اعتادت على مثل هذه الأشياء فهنا يجب أن يدق ناقوس الخطر وأن يذكر نفسه بأنه جندي لله تعالى وإن استطاع خداع نفسه فلن يستطيع خداع ربه وأن يحاسب نفسه على ذلك حسابا شديدا حتى يزجرها عن مثل هذه الأفعال الغير مبررة ، فالطبع سراق ومن يعيش في بيئة يملؤها الفساد والفواحش فلن يجد من يعينه على طاعة الله ، وهنا يجب أن نقف وقفة مع المسؤول المباشر عن عمل ذلك العميل السري ففي كل لقاء مع العميل من فترة لأخرى يجب أن يسأله عن حالته الإيمانية ويحاول أن يستقصي منه أكثر عن ذلك فإن توجس منه ضعف شديد أو تغير فمن الأفضل أن يسلك معه الأسلوب التربوي المناسب وأن ينصحه بما يلزم من الاستغفار والتوبة وتجديد النية وألا يسمح له بمعاودة العمل إلا بعد أن يتأكد من أن حالته قد تحسنت .

٢ – راقب قلبك

يجب ألا يميل قلب العميل لأي من أصدقائه في مجال عمله ، فإن علم مثلا بتواجد هدف كبير في موقع وزمن معين وأرسل هذه المعلومة الخطيرة لرؤسائه فقرروا تنفيذ عمل عسكري في تلك المنطقة – كتفجير شاحنة في فندق يتواجد فيه الهدف – فهنا قد يميل قلب العميل إلى أحد زملائه الصحفيين الذين سيقومون بتغطية إعلامية في ذلك المكان فيحاول أن يبعده عن ذلك الفندق وقد يزل لسانه بشيء من غير أن يشعر أو يشير له أن هناك خطر متوقع ! وهذا قد يحدث وليس بمستغرب فالقلوب تتعلق بمن يحسن إليها أو تميل إليه وإن كان من الكفار أنفسهم كما حدث مع الصحابي أبو لبابة رضي الله عنه : قال ابن إسحاق:"لما حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة خمساً وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب ، فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يؤمنوا أو يقتلوا نساءهم وأبناءهم ويخرجوا مستقتلين . فقالوا : لا نؤمن ولا نستحل ليلة السبت وأي عيش لنا بعد ابنائنا ونسائنا ؟ فأرسلوا إلى أبي لبابة بن عبد المنذر رضي اللّه عنه وكانوا حلفاءه ، فاستشاروه في النزول على حكم النبي صلى الله عليه وسلم . فقالوا : يا أبا لبابة ماذا ترى ؟ وماذا تأمرنا ؟ فإنه لا طاقة لنا بالقتال ، فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه ، وأمر عليه أصابعه يريهم إنما يراد بهم القتل . فلما انصرف أبو لبابة سقط في يده ورأى أنه قد أصابته فتنة عظيمة فقال : واللّه ، لا أنظر في وجه رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حتى أحدث للّه توبة نصوحاً يعلمها اللّه من نفسي . فرجع إلى المدينة فربط يديه إلى جذع من جذوع المسجد فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حين غاب عليه أبو لبابة : أما فرغ أبو لبابة من حلفائه ، فذكر له ما فعل . فقال صلى الله عليه وسلم : لقد أصابته بعدي فتنة ولو جاءني لاستغفرت له وإذ قد فعل هذا فلن أحركه من مكانه حتى يقضي اللّه فيه ما يشاء . فمكث كذلك حتى تاب الله عليه ، ولما جاء الصحابة يحلونه قال : لا والله ، حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقني بيده ، فلما مرَّ عليه خارجاً الى صلاة الصبح أطلقه .

٣ – التجسس العابر

كـان النـبي صـلى الله عليـه وسـلم كثـيرا مـا يتمثـل بأبيـات طرفـة بـن العبـد الـتي يقـول فيهـا :

ستبدي لك الأيام ماكنت جاهلا * ويأتيك بالأخبار من لم تزود !

قد يعترض أي منا معلومات خطيرة أثناء لقاء عابر أو في المناسبات والاحتفالات العامة فيكون بمثابة صيد ثمين في شبكتك من غير أن تقصد أي بمجرد الصدفة العابرة ، فعندها يجب إيصال هذا الخبر بطريقة سرية وآمنة وعبر عناصر موثوقة للمسؤولين حتى يتم استثمار هذه المعلومات بالشكل المناسب كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في هذه القصة لما جاءه خبر خط سير قوافل قريش الجديد والذي علق عليه اللواء محمود شيت خطاب رحمه الله بأنه الخبر الذي أغلق على قريش آخر منفذ تجاري لها ، جاء في السيرة "قال صفوان بن أمية : إن محمدا وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع ؟ وأصحابه لا يبرحون الساحل وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه فما ندري أين نسلك ، وإن أقمنا نأكل رءوس أموالنا ونحن في دارنا هذه ما لنا بها نفاق إنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى أرض الحبشة . قال له الأسود بن المطلب : فنكب عن الساحل وخذ طريق العراق . قال صفوان لست بها عارفا . قال أبو زمعة فأنا أدلك على أخبر دليل بها يسلكها وهو مغمض العين إن شاء الله . قال من هو ؟ قال فرات بن حيان العجلي ، قد دوخها وسلكها . قال صفوان فذلك والله فأرسل إلى فرات فجاءه فقال إني أريد الشام وقد عور علينا محمد متجرنا لأن طريق عيراتنا عليه فأردت طريق العراق . قال فرات فأنا أسلك بك في طريق العراق ، ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد – إنما هي أرض نجد وفياف . قال صفوان فهذه حاجتي ، أما الفيافي فنحن شاتون وحاجتنا إلى الماء اليوم قليل . فتجهز صفوان بن أمية ، وأرسل معه أبو زمعة بثلاثمائة مثقال ذهب ونقر فضة وبعث معه رجالا من قريش ببضائع وخرج معه عبد الله بن أبي ربيعة وحويطب بن عبد العزى في رجال من قريش . وخرج صفوان بمال كثير – نقر فضة وآنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم وخرجوا على ذات عرق . قدم المدينة نعيم بن مسعود الأشجعي ، وهو على دين قومه فنزل على كنانة بن أبي الحقيق في بني النضير فشرب معه وشرب معه سليط بن النعمان بن أسلم – ولم تحرم الخمر يومئذ – وهو يأتي بني النضير ويصيب

من شرابهم . فذكر نعيم خروج صفوان في عيره وما معهم من الأموال فخرج من ساعته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة في مائة راكب فاعترضوا لها فأصابوا العير . وأفلت أعيان القوم وأسروا رجلا أو رجلين وقدموا بالعير على النبي صلى الله عليه وسلم فخمسها ، فكان الخمس يومئذ قيمة عشرين ألف درهم وقسم ما بقي على أهل السرية . "

وهذا النوع من التجسس العابر هو ما تحرص عليه الأنظمة الأمنية في الدول الحديثة لتغذية معلوماتها الأمنية ، فتعرض الجوائز القيمة لمن يدلي بأي معلومات ولو كانت صغيرة عن أي عملية إرهابية أو خلية أو مطلوب وقد تصل هذه الجوائز إلى عشرات الملايين كما هو الحال مع المطلوب الأول في العالم الشيخ أسامة بن لادن حفظه الله ، أما الأنظمة الأمنية العربية فقد اشتهرت العبارة التي تقول (كل مواطن غفير) لتمثل هذا النوع من التجسس ! بل إن بعض الأجهزة الأمنية في بعض الدول العربية المصابة بالهوس الأمني تطالب أولياء الأمور بالتبليغ عن أبنائهم إن بدى عليهم أي توجه نحو الدين كإطلاق اللحية أو الذهاب إلى صلاة الفجر في المسجد !

٤ – الالتزام بالخط الأمني

الخط الأمني للعميل السري يجب أن يكون واضحا وأن يكون كالمسطرة لا يحيد عن اتجاهه أبدا ومهما كانت الظروف ، فالأثر اليسير لأي خطأ أمني صغير قد تكون نهايتك به ولو بعد حين ! ومن أروع ما رأيت من الالتزام بالخط الأمني أن أحد المطلوبين الدوليين انقطعت به السبل لشدة المطاردة والمراقبة والبحث الحثيث عنه فقد كانت صوره منتشرة في كل مكان وعلى صفحات الجرائد وشاشات التلفزة فاضطر إلى إيقاف نشاطه الحركي والسكون التام في شقة صغيرة ولمدة قاربت أربعة أعوام بدون أن يفتح الباب أو أن يرد على سماعة الهاتف – لوجود شخص آخر يقوم بذلك – ومع ذلك لم يتوقف عن الاستمرار في نصرة الدين عبر الجهاد الإعلامي الذي لم تتمكن الأجهزة الأمنية أيضا من تعقبه أو اختراقه لصرامة إجراءاته الأمنية التي يتبعها أثناء نشاطه الإلكتروني .

٥ – الحذر من التدوين

يجب أن يحذر العميل السري من ترك أي شيء يدل على توجهه وقد يستدل على شيء من ذلك مما يكتبه في النوتة أو في طرف كتاب أو على حائط منزله أو غيره ، فقد تقع عين أحد أصدقائه بالصدفة أو بالتطفل على ذلك فتثير عنده الشكوك ! والشكوك هي الخط الأحمر الذي يجب أن نبتعد عن كل ما يوحي إليه .

قام أحدهم بتزوير بطاقة هوية على عجل لأمر ما ، وبعد أن كتب الاسم والسكن وجد خانة صلاحية البطاقة فكتب بكل سهولة تبدأ من تاريخ : ١١ / ٩ /٢٠٠١ وتنتهي في ١١ / ٩ /٢٠٠٥ وبعد أن قبض عليه في قضية جهادية وجدوا البطاقة والذي أكد عند ضباط المباحث الظن بأنه ذو توجه جهادي هو وجود هذا التاريخ بالذات ١١ / ٩ /٢٠٠١ لأنه يوم خالد في حياة كل مجاهد ، فكان من العبث والحمق أيضا وضع إشارات سهلة تساعد الآخرين في معرفة شخصيتك الحقيقية .

٦ – إثارة النزاعات

إثارة النزاعات العسكرية أو السياسية أو الطائفية بين الدول أو في داخل الدولة الواحدة هو من صميم العمل الإستخباري الذي تمارسه أجهزة المخابرات على مر السنين ، وتعتمد هذه الفكرة على مبدأ " فرق تسد " وتتطلب قدرة عالية في خلق المناخ المناسب للنزاع ومن ثم الاختفاء من خلف الأحداث حتى تبدو بشكل طبيعي ، كما في الأزمات المفتعلة في حرب الخليج الأولى والثانية ، وكما فعل الصحابي نعيم بن مسعود رضي الله عنه في هذه المهمة . . جاء في السيرة
أن رجلا من غطفان – يقال له نعيم بن مسعود – جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال قد أسلمت ، فمر بي بما شئت . فقال " إنما أنت رجل واحد . فخذل عنا ما استطعت . فإن الحرب خدعة " . فذهب إلى بني قريظة – وكان عشيرا لهم – فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه . فقال إنكم قد حاربتم محمدا . وإن قريشا إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا انشمروا قالوا : فما العمل ؟ قال لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . فقالوا : قد أشرت بالرأي . ثم مضى إلى

قريش فقال هل تعلمون ودي لكم ونصحي ؟ قالوا : نعم . قال إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم وإنهم قد أرسلوا إلى محمد أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يمالئونه عليكم فإن سألوكم فلا تعطوهم . ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك .

فلما كانت ليلة السبت من شوال بعثوا إلى يهود إنا لسنا معكم بأرض مقام وقد هلك الكراع والخف . فاغدوا بنا إلى محمد حتى نناجزه فأرسلوا إليهم إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه . ومع هذا فلا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن . لما جاءهم رسلهم قالوا : قد صدقكم والله نعيم . فبعثوا إليهم إنا والله لا نبعث إليكم أحدا . فقالت قريظة قد صدقكم والله نعيم . فتخاذل الفريقان !.

٧ – إرحل فورا

يجابه العمل الإستخباري عادة بعمل استخباري مضاد ، فالعميل السري في حالة اكتشافه يتم وضع خطة لمراقبته على المدى الطويل حتى يتم الكشف عن بقية أعضاء خلية التجسس أو معرفة المتعاونين والخونة وغيرها من المعلومات التي يجب مراقبة خط سير العميل وعلاقاته واتصالاته لمعرفتها ، فإن شعر العميل السري أنه مراقب فليقم بعملية سريعة لكشف حقيقة المراقبة فإن كانت المراقبة حقيقية وليست وهما أو وسوسة فليقم فورا بعملية تضليل يكون قد جربها من قبل ويعرف كيف يقوم بها بإتقان ومن دون أي تأخير ، فإن نجح في الإفلات من المراقبة فليذهب مباشرة إلى أحد الأماكن التي يخفي فيها أوراقه الثبوتية الجديدة ومبلغا من المال يمكنه من الاختفاء برهة من الزمن ريثما يؤمن طريق سفره خارج البلاد ، كأن يحتفظ بهذه الأوراق والأموال في صندوق لحفظ الأمانات في أحد البنوك خارج المدينة التي يسكن فيها ، أو يحتفظ فيها بكعب الحذاء الذي يلبسه دائما ، المهم أنه يجعل له خط رجعة ينسحب إليه إن اكتشف أمره ولا يرجع أبدا إلى الأماكن التي كان يتردد إليها في السابق لأنها قد تكون مراقبة !

٨ – الحل النهائي

يضع بعض القادة السياسيين سلسلة من الحلول تجاه الأزمات التي تعترض بلدانهم مع أي خطر خارجي قد يهدد أمنهم القومي ، فيبدأون بالمفاوضات السياسية ثم يتدرجون بعزل الدولة – مصدر الخطر – ثم فرض العقوبات الاقتصادية عليها ثم احتوائها ، فإن لم يجدي ذلك يحاولون دعم أي حركة تمرد في الداخل أو أي محاولة انقلابية على نظام الحكم ، فإن فشلوا في كل تلك الخطوات فإنهم يلجؤون أخيرا إلى " الحلول النهائية " وهي " أسلحة الردع " التي تمتلكها الدول النووية ، فما الغواصات النووية التي تحركها أمريكا في مناطق النزاع مع إيران وكوريا الشمالية وغيرها إلا عصى تلوح بها لخصومها من فترة لأخرى ، والعمل الإستخباري توجد به مراحل للوصول إلى الهدف – المعلومات – ومن خلال الخطة المرسومة يمكن التدرج من وسيلة إلى أخرى ، فإن لم تفلح هذه الوسائل فيجب هنا أن نلجأ إلى " حلول نهائية " لنحصل على هذه المعلومات مهما كانت الخطورة ومهما كلف الأمر ،كخطف المسؤولين الذين لم نفلح في إيجاد قنوات اتصال معهم ، لأن الخطف هنا هو الحل النهائي للوصول لتلك المعلومات التي نريدها من ذلك المسؤول ، وهذه الخطوة تستلزم مهارة في عمليات الخطف وتأمين ما يلزم له ومعرفة تامة بأساليب التحقيق لاستخراج المعلومات وكشف التضليل الذي قد نتعرض له ، ومعرفة أيضا بأدوات وأساليب التعذيب كالإغراق والخنق المؤقت الذي تستخدمه السي آي إيه في التحقيقات ، ويجب أيضا التعرف على العقاقير التي تستخدم في ذلك وبعد الحصول على المعلومات المطلوبة يتم التخلص من الجثة مع ترك ما يوحي أنها عملية انتحار أو جرعة زائدة من المخدرات أو قتل جنائي بدافع السرقة وغيرها حتى لا يظن أحد أنها من عمل المخابرات ثم نغادر البلد .

٩ – الرموز

قال ابن إسحاق: "لما انتهى الخبر إلى رسول الله وإلى المسلمين، بعث سعد بن معاذ وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير. قال: «انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا أحقٌ ما بلغنا عنهم، فإن كان حقا فالحنوا لي

لحنا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد المسلمين، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس». قال: فخرجوا حتى أتوهم. قال موسى بن عقبة: فدخلوا معهم حصنهم، فدعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف، فقالوا: الآن وقد كسر جناحنا وأخرجهم يريدون بني النضير، ونالوا من رسول الله ، فجعل سعد بن عبادة يشاتمهم، فأغضبوه فقال له سعد بن معاذ: إنا والله ما جئنا لهذا، ولما بيننا أكبر من المشاتمة. ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير، أو أمر منه. فقالوا: أكلت أير أبيك. فقال: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن. وقال ابن إسحاق: نالوا من رسول الله وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد. شاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلا فيه حدة فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم لما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة أي: كغدرهم بأصحاب الرجيع: خبيب وأصحابه. فقال رسول الله : «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين».

تأتي قيمة الرموز في أنها تستخدم كالشيفرة السريعة ، وقد تحدث ويفهم القصد منها بشكل تلقائي إن كان هناك سابق معرفة وأمور مشتركة بين كلا الطرفين كما كان في هذه القصة بين النبي صلى الله عليه وسلم و سعد بن معاذ وسعد بن عباده ، وتتميز الرموز عن الشيفرة بأنها طبيعية ولا تلفت النظر ، أما الثانية فيستطيع العدو بسهولة إن اكتشف أمرها أن يعرف أنها شيفرة لشيء ما ، ولكنه لن يستطيع فكها إلا إن كان يملك مفتاح الشيفرة اللازم لفك الإشارات اللاسلكية والأرقام المختلفة وغيرها من أنواع الشيفرات التي تستخدم قديما وحديثا ، وهذه الطبيعة التي تتميز بها الرموز تجعلها أكثر ملائمة للعمل الإستخباري حتى لا تدور الشبهات حوله ، ولكن من الضروري ألا يساء فهم الرمز وألا يكون من السهولة بحيث يمكن اكتشافه والتعرف على حقيقته كما حدث مع قوات المجاهدين عند انسحابهم من قندهار عام ٢٠٠١م إثر القصف الجوي العنيف الذي تعرضت له المدينة ، فقد كان رمز أمر الإنسحاب الذي أطلقه أحد الأمراء عبر اللاسلكي هي كلمة " لم الدور " وهي كلمة عامية مصرية من السهل التعرف عليها ومعرفة المراد منها ، لأن جهاز مخابرات الجيش الأمريكي يحوي عددا من المترجمين من مختلف الجنسيات وعلى

معرفة كبيرة باللهجات المصرية واليمنية والمغربية وغيرها ، فكان من الخطأ استخدام كلمات بهذه السهولة ، وقد أدى اكتشاف الرمز هنا إلى قصف القافلة أثناء الإنسحاب فقتل في هذا القصف العشرات نسأل الله أن يتقبلهم شهداء . فيجب على العميل السري أن يتنبه لهذا الأمر جيدا وأن يغير في الرموز بين فترة وأخرى وألا يجعلها بشكل مريب أو ملفت للنظر ، فلكل مقام مقال ، ويجب كذلك أن يتعايش فترة من الزمن مع المسؤول المباشر له حتى يكون بينهما نوع تفاهم يسهل عليهما معرفة قصد الآخر من خلال إشارة بسيطة ، كما كان بين مسؤول تنسيق غزوتي نيويورك وواشنطن [رمزي بن الشيبة] وأمير الخلايا المهاجمة [محمد عطا] ، فقد كان محمد يتحدث إلى رمزي عبر أحد برامج المحادثة الإلكترونية في الإنترنت بأسماء أجنبية ، وأبلغه بالمواقع المستهدفة وموعد العملية من خلال كلمات طبيعية لا تستغرب ممن يخطط للدراسة في أمريكا ، ولكنها حملت في ثناياها رموزا أكبر وأخطر عملية عسكرية ضد أمريكا ! وفيما يلي نص الرسالة الأولى التي أرسلها محمد عطا إلى حبيبته (جني) باللغة الألمانية عبر برنامج للمحادثة الإلكترونية و جني هذه بالطبع هي رمزي بن الشيبة : (سيبدأ الفصل الدراسي الأول بعد ثلاثة أسابيع ، ليس هناك أية تغييرات ، كل شيء على ما يرام وهناك مبشرات وأفكار مشجعة . . . مدرستان للدراسات العليا وجامعتان ، كل شيء يسير حسب الخطة ، هذا الصيف سيكون بالتأكيد حارا ! أريد أن أتحدث إليك عن بعض التفاصيل ، ، تسعة عشر شهادة للدراسة الخاصة وأربعة امتحانات . سلامي للبروفيسور . . إلى اللقاء).انتهى .

وما يلاحظ أن هذه الرسالة الصغيرة لخصت أهداف العملية وعدد المنفذين والموعد التقريبي ، وختمت بالسلام على البروفيسور والذي أظن أنه الشيخ أسامة بن لادن ! ، أما تحديد الموعد النهائي فقد جاء عبر آخر مكالمة تليفونية بين منسق العملية رمزي بن الشيبة وقائد العملية محمد عطا وفيما يلي نص الحوار والذي كان باللهجة المصرية :

محمد : في واد صحبي مديني لغز وأنا مش عارف أحله ! وأنا اتصلت بيك عشان تحلهولي !
رمزي : وده وقت ألغاز يا محمد ؟ محمد : معلش إنت صحبي بقى ، ومحدش حيحلهولي غيرك .
رمزي : طيب قول. محمد : (عصايتين وبينهم شرطة وكعكاية منها عصاية مدلاية . . . يعني إيه) ؟؟ انتهى .

ففهم رمزي اللغز ، فالعصايتين كانتا رقم ١١ والشرطة هي الفاصلة أم كعكاية منها عصاية مدلاية فهي رقم ٩ ، فيكون الناتج ١١ / ٩ وهو موعد تنفيذ أنجح عملية عسكرية في التاريخ المعاصر .

١٠ – حركات الوجه

من الصفات المهمة في العميل السري أن تكون أعصابه باردة وأن تتوفر لديه قدرة على التحكم في حركات وجهه في المواقف المختلفة ، فحركات الوجه هي الإشارات الأولى التي قد تثير الريبة والشك لدى الغير أو تزيله ، فعلامات التوتر البادية على وجه المسافر في المطار هي التي تدعو ضابط التدقيق في الجوازات إلى إحالته لغرفة التفتيش الذاتي ! وكم من العمليات الجهادية كشفت وأحبطت والسبب التوتر الواضح على وجه أحد المنفذين ، والحقيقة أن هذه الميزة لا تتوفر في كل أحد ، ولذا فإني أعتبرها من الشروط اللازمة لعمل العميل السري لأن الوجه هو مرآة ما بداخلك ، ويكفي أن يتغير وجهك من سماع خبر معين لأعرف حقيقة رأيك فيه مهما حاولت أن تقول بلسانك عكس ذلك ! والعميل السري يعمل في بيئة معادية له تماما في الأفكار والأخلاق والميول ، فمن المهم أن يعود نفسه ويمرنها على التصرف الطبيعي الموافق لمن حوله في أي موقف وإن كان شديدا على النفس .

١١ – التخصص المساند

الجاسوسية عمل متكامل من حيث القدرات والأدوات وأسلوب العمل ، فلا يكفي أن نغرس عميلا سريا في مكان معين وبتمويه جيد ووسيلة اتصال آمنة دون أن تكون لديه قدرة عملية على تحصيل المعلومات الاستخبارية ، وحتى تتضح الصورة نقول لو أن لدينا عميلا يعمل في الوكالة الدولية للطاقة الذرية وطلبنا منه تقارير عن بعض الشركات المصنعة لبعض المواد التي تهمنا وأسماء الخبراء فيها ووكلاء البيع لديها ومواقع التخزين وإجراءات السلامة وغيرها ، فلو أن العميل لا يستطيع استخدام الحاسب الآلي بمهارة ولا يتقن طرق اختراق برامج الحماية وليست لديه معرفة بالمصطلحات العلمية للمواد الكيماوية فسيكون شبه عاجز عن إكمال المهمة ، فهو قد نجح في كل الخطوات الموصلة إلى داخل الوكالة ولكنه لم ينجح في استخراج المعلومات منها ، وكذلك

يكون الحال عند فقد أي جزء من أجزاء العمل الإستخباري ، ويحضرني هنا مثال رائع استخدمته السي آي أيه الأمريكية للحصول على صور بعض القادة المطلوبين لديها ممن لا تعرف أوصافهم ، فآلات التصوير الصغيرة " الكاميرا المخفية " قد لا يتسنى إدخالها إلى معسكرات القاعدة بسبب قوة إجراءات التفتيش والتوتر الذي يصيب الجاسوس عند حملها مخافة أن تكتشف ، ولذا أرسلت المخابرات الأمريكية قبل أكثر من عشر سنوات جاسوسا من أصل صيني ذا براعة عالية في الرسم ويستطيع أن يرسم صورة طبق الأصل وبأدق تفاصيل الوجه لأي شخص يلقاه ولو لمرة واحدة ! فاستطاعت المخابرات الأمريكية عن طريق هذه الكاميرا البشرية من أن تحصل على بعض الصور الثمينة لبعض الشخصيات الغامضة التي كانت لا تعرف عنها سوى الاسم في السابق !.

١٢ – صنائع المعروف تقي مصارع السوء :

روى البخاري عن أبو الدرداء قوله : إنما تقاتلون بأعمالكم . وقد جاء في قصة الثلاثة الذين أغلق عليهم الغار أن الله تعالى فرج عنهم بأعمالهم الصالحة الخالصة لوجهه الكريم ، والعمل في الحقل الإستخباري مليء بالألغام والمخاطر التي يجب على العامل فيه أن يحوط نفسه بما يلزم من الإجراءات الأمنية والوقائية وبما يستطيع من الأعمال الصالحة التي يصرف الله بها عنه السوء ويعمي بها عنه أعين الظالمين .

وقد حدثت لأحد الخليجيين الممولين للجماعة الإسلامية التي خططت لعملية اغتيال السادات قصة في غاية العجب ! فقد كان مسافر بسيارته عبر الحجاز ، وبينما هو يقطع الطريق إذ رأى في منتصف الطريق حمارا واقفا ، فأمر السائق أن يوقف السيارة ثم نزل فرأى أن الحمار مشرف على الهلاك من شدة الحر والظمأ ، فذهب وأتى بدلو ماء ووضعه تحت فم الحمار مباشرة ، فشرب الحمار ثم شرب حتى ارتوى وعادت إليه الحياة ، ثم عاد صاحبنا إلى السيارة وأكمل طريقه بعد أن أنقذ حياة الحمار ! وبعد ذلك بعام تقريبا وصل هذا الأخ إلى القاهرة مع زوجته وبعض أقاربه لقضاء الإجازة الصيفية كعادته ولكنه هذه المرة جلب معه حقيبة سفر مليئة بالأموال – بعد تمريرها من المطار– ، وفي إحدى الليالي جاء رجلان وجلسا معه على انفراد ثم خرجا فبدا الإضطراب والتوتر واضحا عليه ، فقال لأحد المقربين منه من أقربائه الذين معه " اسمع يا فلان أنا سأذهب

الليلة إلى مكان ما وإن لم أعد خلال يومين فخذ فلانة – زوجته – إلى المطار واحجزا على أية رحلة مغادرة لأرض المطار وإلى أي مكان ، المهم أن تخرجا من مصر بأسرع وقت فهمت ؟" وطمأنه أن الأمور ستكون على ما يرام ، المهم فقط أن ينفذ ما طلبه منه ، ثم ذهب وفي اليوم الثاني أتى مسرعا وأمر الجميع بالتوجه إلى المطار وبسرعة "فهناك أمر خطير قد حصل ويجب أن نغادر" ولم تمض بضع ساعات إلا وهم على متن الطائرة ، وبدأت الطائرة تتقدم على المدرج استعدادا للإقلاع ثم توقفت فجأة ولا أحد يدري ما السبب ! ثم أتت مدرعات قوات الطوارئ المصرية وأحاطت بالطائرة ! ثم نزل منها عشرات الجنود مدججين بالأسلحة ودخلوا الطائرة ، يمرون على كل مسافر وكأنهم يبحثون عن شخص ما ! هنا أيقن الأخ أن كل شيء قد انتهى ولا سبيل إلى النجاة ، وعندها أخذته سنة من النوم ! فرأى ذاك الحمار الذي أنقذه في طريق السفر يمر أمام ناظريه !! ثم استيقظ وقد رحل الجنود من الطائرة ! ودون أن يكتشفوا أمره !! وأقلعت الطائرة ووصل إلى بلده سالما ثم صدر عليه بعد ذلك حكم غيابي بالإعدام ، فحمد الله على لطفه وعلم أن الله تعالى جازاه على انقاذه ذلك الحمار من الموت بأن أنقذ رقبته من حبل المشنقة ! وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لا تحقرن من المعروف شيئا)) رواه مسلم .

١٣ – نشاط التغطية

هو صمام أمان العميل السري الذي يؤهله إلى دخول أماكن معينة دون أن يستغرب وجوده فيها ، فمثلا قد يستغرب وجودك بالقرب من مفاعل نووي إلا إن كنت من جماعات حماية البيئة وتحمل معدات لقياس الإشعاع النووي وتأثيراته على الأحياء النباتية ! ولذا فإن العميل السري هنا قد لا تفيده شخصية الصحفي بل إنها قد تضعه في مشاكل جمة لأن الشخصية والغطاء المناسب هنا هي عضوية جماعة من جماعات حماية البيئة وهي كثيرة وفي كل بلد .

ومن الأمثلة الجميلة التي تدل على عبقرية المجاهدين في تغطية نشاطاتهم هو ما فعله أحد الإخوة عندما أراد أن يحصل على كشف بأسماء ضباط الإستخبارات في بلده ، وهي مهمة صعبة بلا شك للسرية الكبيرة التي تحيط بهم ، فما كان منه إلا أن بنى علاقة جيدة مع لجان حقوق الإنسان الدولية وعلى رأسها اللجنة العربية لحقوق الإنسان في باريس ، ثم بعد فترة من الزمن وبعد أن فهم

وتمرس طريقة عمل تلك اللجان أسس لجنة خاصة ببلده وأصبح يتصدى من خلالها للقضايا الإنسانية التي تحدث من فترة لأخرى ، ثم قام بدعوة كل من تعرض للتعذيب على أيدي المخابرات بتقديم شكاوى للجنة على أن تتضمن صحيفة الشكوى أسماء من قاموا بتعذيبهم أو الإعتداء عليهم ، وبالفعل انهالت عليه الإتصالات وتمكن من الحصول على قائمة كبيرة من أسماء ضباط الإستخبارات كما خطط بالضبط ! ومن غير أن يشعر أحد بحقيقة ما يجري !

١٤ – الخروج من الورطة

عليك أن تتعلم طريقة رد المحرمات بطريقة لبقة لا تشعر من أمامك بأنك تحرم هذا الشيء ، ولكنك فقط لا تحبه ، كأن تعتذر لمن مد لك كأسا من النبيذ بأنك تعاني من قرحة في المعدة ولا تنسى أن تشكره على كرمه ! أو تعتذر عن أكل لحم الخنزير لأنك نباتي و هكذا ، وإن كنت على متن الطائرة فاطلب وجبة اليهود Jewish Meal لأنها لا تحتوي على لحم الخنزير ، ولأن اليهود متقيدون بالذبح الموافق لشريعتنا ، وستجد علامة (k) أو (U) الخاصة باليهود على كل المنتجات الغذائية للشركات المتقيدة بذلك .

١٥ – أمن الاتصالات

قد تكون عملية إيصال المعلومات للمسؤولين هي الفقرة الأكثر حساسية في موضوع الجاسوسية لأنها النقطة التي قد يكشف بها العميل السري إن لم يضبط أمن الاتصالات لديه ، فإن كان المسؤول من النوع المطلوب والمراقب ويقيم أيضا في منطقة مراقبة كالاتصالات الخارجة من باكستان وأفغانستان لدول الخليج خاصة أو مصر أو سوريا ، فهنا يكبر الظن في أن العدو قد يعترض الاتصال عن طريق برنامج " بصمة الصوت " للمطلوب ، وبالتالي يكشف الطرف الآخر من الاتصال وهكذا . فيجب أن تكون وسيلة اتصالك مرنة ومدروسة بشكل جيد ومتغيرة من وقت لآخر .

١٦ – المظهر المناسب

لكـل شخصـية نمـط معـين مـن الملابـس والأحذيـة والسـاعات وغيرهـا ، فـالكبير في السـن لـيس كالشاب ، وراعي الغنم ليس كرجل الأعمال ، فلكل منهم نوع من الملبوسات تميزه عن الآخرين ، ويجب الإنتباه هنا إلى أدق التفاصيل ، فلا يعقل أن يكون العميل السري راعي غنم يرصد طريق أرتال للجيش الأمريكي وهو يلبس حذاء فاخر أو ساعة ثمينة ، وهذه الأخيرة قد أدت إلى إحباط عملية اعتقال أحد تجار المخدرات الآسيويين المطلوبين للشرطة ، فقد كان المخبر الخليجي يرتدي البنجابي ويتظاهر بأنه يقوم بغسيل السيارات ولكن ساعته الرولكس أثارت انتباه تاجر المخدرات الذي لم يتأخر عن الفرار بعد أن كشف الخدعة !

١٧ – الإختراق الرسمي

تتطلب بعض العمليات الجهادية الكبيرة عملية اختراق للموقع المستهدف أو لمكان العملية بوقت كاف لمعرفة تفاصيل الموقع وعدد رواده والأدوات اللازمة لنجاح العملية ، وقد توقف نجاح كثير من كبريات عمليات المجاهدين على هذا النوع من الإختراق ، فعملية (مسرح موسكو) قد بدأ التجهيز لها قبل ليلة التنفيذ بفترة طويلة عندما تقمص بعض أفراد القائد موسى باراييف دور أصحاب شركة تجهيزات غذائية واستطاعوا الحصول على عقد عمل لإنشاء كافتيريا في المسرح ، وبعد ذلك أصبح بإمكانهم نقل القنابل والأسلحة إلى داخل المسرح على أنها معدات خاصة بالكافتيريا من غير أن يستشعر أحد ! وبعد ذلك نفذوا عمليتهم الشهيرة التي قتل فيها أكثر من ١٠٠ روسي وحققت ضجة إعلامية كبيرة في العالم وزادت من ضغط الرأي العام العالمي والروسي للإنسحاب من الشيشان ، وهذه كانت أحد أهم نتائج العملية ، وكذلك عملية الإختراق الرسمي التي سبقت عملية بومبي عام ٢٠٠٨ والحقيقة أنها كانت عملية شديدة التعقيد وذلك لدقة التنظيم ولسرعة حركة أفراد المجموعة الذين لم يتعدى عددهم العشرة ، ولكن هؤلاء العشرة قلبوا العاصمة التجارية للهند رأسا على عقب وقد كان لهذه العملية تأثيرات كبيرة على المستوى المحلي والإقليمي والدولي ، وخرجت عنها تحليلات ودراسات استراتيجية تبين خطورة هذا النوع من الأعمال

العسكرية المدروسة فقد كان الإختراق الرسمي لفندق – تاج محل – في بومبي عن طريق توظيف أحد المجاهدين للعمل بداخل الفندق بوابة لإعداد مسرح عمليات احتجاز الرهائن ، ولولا هذا الإختراق لما عرف المجاهدون تفاصيل ممرات الفندق والمخارج الخاصة بالطوارئ والأماكن المناسبة لتخزين الذخيرة في كل طابق وهكذا ، والإختراق الرسمي لأي موقع هو بمثابة حصان طروادة للمجاهدين يستطيعون من خلاله تخطي كافة الحواجز الأمنية التي تحول بينهم وبين المواقع المهمة والحساسة للعدو .

١٨ – التجسس المباشر

هو تجسس طويل المدى ويكون بزرع عضو تابع في الموقع المراد التجسس عليه كنقاط الحدود الفاصلة بين الدول أو كالقواعد العسكرية ، فحتى نتمكن من الحصول على المعلومات المطلوبة يجب أن تكون لنا عين في الداخل ، وحتى يتم ذلك يجب أن ينخرط العميل السري في السلك العسكري كمتطوع ويكون مجال عمله الموقع الذي يتم تعيينه فيه ، وقد يحتاج العميل إلى حيلة أو رشوة أو " خدمة شخصية " ليتم وضعه في المكان المطلوب التجسس عليه من غير أن يشعر به أحد ، هذا إن لم يتوفر لدينا أحد المنظمين إلينا حديثا من العاملين في هذه الأماكن ،وقد استفاد المجاهدون كثيرا من هذا النوع من التجسس في تنفيذ عملياتهم كما في عملية اغتيال الأسود العنسي على يد قائده العسكري فيروز الديلمي ، وكما حدث في اغتيال السادات على يد جنوده الأشاوس في العرض العسكري والتي كانت من أروع وأعظم عمليات الإغتيال على مر التاريخ . ونأمل في المستقبل أن تعمم الفكرة على القطاع العسكري وأن تتوسع باتجاه بعض المؤسسات الحيوية في تلك الدول كوزارة الخارجية والمجالس النيابية – في مجالات معينة لا تدخل في التشريع والموالاة – حتى نكون دولة داخل دولة وهو عين ما يفعله حزب الله في لبنان !

١٩ – المنية ولا الدنية

تكمن خطورة العميل السري في أنه في حالة القبض عليه قد تستخدمه دوائر المخابرات بشكل عكسي للإيقاع بالخصوم فيكون حبل شراك ومصيدة لمن خلفه بعد أن كان رأس حربة لهم ، ولذا فمهما احتاط المرء فإن الأمور بيد الله سبحانه يصرفها كيف يشاء ، ولكن من الواجب على العميل السري أن تكون لديه عقيدة قتالية خاصة به لتكون حساباته محسوبة ومحسومة قبل أن يبدأ العمل ، فإن حدث ما يكرهه فلن يتأخر حينها في ردة الفعل المناسبة ونحن لا ندعوا العميل إلى قتل نفسه لمجرد الخوف من الإعتقال والتعذيب ولكن ليدخل في معركة شعارها (المنية ولا الدنية) فإن تم إعتقاله وكشف أمره بشكل لا يستطيع التحايل معه وخشي إن تعرض للتعذيب الشديد أن يبوح بمعلومات هامة عن المجاهدين تعرض حياتهم للخطر بحيث تكون حياته مقابل حياتهم – ويرجع تقدير ذلك له – فقد قال بعض أهل العلم بجواز قتل النفس في هذه الحالة إنقاذا لأنفس المؤمنين ومصالح المسلمين الهامة ، جاء في كتاب حصن المجاهد :

فصل : في جواز قتل المجاهد نفسه إن خشي الوقوع في الأسر والبوح بأسرار تضر المجاهدين .
سئل الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله عن ما يلاقيه أهل الجزائر من المجاهدين عندما يقعون في الأسر على أيدي الفرنسيون من العذاب والنكال حتى يعترفوا ، ويدلوا على المسلمين وأسرارهم ، فهل لهم أن ينتحروا لكي لا يخبروا بسر المسلمين ؟

فكانت الإجابة ما يلي :

"الفرنساويون في هذه السنين تصلبوا في الحرب ، ويستعملون الشرنقات إذا استولوا على واحد من الجزائريين ليعلمهم بالذخائر والمكامن ، ومن يأسرونه قد يكون من الأكابر فيخبرهم أن في المكان الفلاني كذا وكذا ، وهذه الإبرة تسكره إسكارا مقيدا ثم هو مع هذا كلامه ما يختلط ، فهو يختص بما يبينه بما كان حقيقة وصدقا . جاءنا جزائريون ينتسبون إلى الإسلام يقولون : هل يجوز للإنسان أن ينتحر مخافة أن يضربوه بالشرنقة ، ويقول : أموت أنا وأنا شهيد مع أنهم يعذبونه بأنواع العذاب ، فقلنا لهم : إذا كان كما تذكرون فيجوز ، ومن دليله " آمنا برب الغلام " وقول بعض أهل العلم

: إن السفينة . . . إلخ ، إلا أن فيه التوقف من جهة قتل الإنسان نفسه ومفسدة ذلك أعظم من مفسدة هذا ،فالقاعدة محكمة ، وهو مقتول ولا بد "انتهى.

ومما يجب أن يعتقده العميل السري المجاهد أنه في ساحة من أخطر ساحات الحرب قد ينقلب فيها السحر على الساحر وأنه لا يوجد شيء أغيظ لأعداء الله وأكثر حسرة في قلوبهم من أن يفوتهم صيد ثمين ويذهب من بين أيديهم من غير أن يستفيدوا من المعلومات التي بحوزته ، فقد كانت دوائر المخابرات والمباحث توصي فرق الإقتحام والقوات الخاصة إن حاصروا أحد المطلوبين المهمين أن يكون إطلاق النار على الأرجل أو اليدين بحيث لا يصاب إصابة قاتلة تمنع من إستجوابه ، وقد كانت بعض دوائر الإستخبارات في العالم تقوم بالتخلص من عملائهم فور إنتهاء المهمة أو تقنعهم بأن يقوموا بذلك في حالة القبض عليهم ، وأذكر هنا أن جاسوس تابع للإستخبارات العراقية أثناء حكم صدام حسين تم القبض عليه في إحدى الدول العربية وتم تفتيشه وتجريده من كل شيء ثم وضع في غرفة خالية تماما ومقفلة بإحكام حتى لا يتسنى له إيذاء نفسه قبل أن تتسلمه المخابرات لإستجوابه ، فاستغل الجاسوس وجبة الطعام التي كان يلف فيها كيس الخبز بسلك حديد صغير و رقيق فأخذه وشرخ به ما تحت إبطه فأخرج من تحت الإبط كبسولة كانت تحتوي على سم قوي المفعول ما إن تناوله حتى وقع ميتا ! فهذا حال أهل الباطل وجلدهم عليه وهم لا يرجون وراء ذلك فوزا بجنة ولا نجاة من النار أفلا نكون أولى بذلك منهم ونحن نقرأ قوله تعالى ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ ﴾ .

٢٠ – جذور الشخصية

لا أحد يخرج من الهواء هكذا دون أي ماض له أو شيء من التاريخ يحكي قصته ، وقد أدى الإهمال في هذا الجانب إلى وقوع الكثير من العملاء السريين في قبضة السلطات الأمنية ، فإن أية علامة شك تحوم حول العميل ستؤدي مباشرة إلى السؤال عنه والتفتيش عن ماضيه ، وهنا إما أن يتأكد الشك أو يلغى ، ولاحظ هنا أن العميل لا يعلم عن شيء من ذلك ! فصمام الأمان هنا أن تجعل لشخصيتك جذورا طبيعية يرجع إليها كل من أراد التأكد من حقيقتك ، فعندما يذهب أحدنا لمهمة تجسسيه في " إسرائيل " فمن المهم أن يبدأ أولى خطوات هذا المشروع بتنسيق قصة

معينـة تحـت غطـاء تجـاري أو ثقـافي مـع أي مـن الجاليـات اليهوديـة في المغـرب أو مصـر أو أمريكـا فتكـون بـذلك قـد حصـلت علـى جـذور لشخصـيتك الجديـدة مـن خـلال العلاقـات الـتي خلفتهـا ورائـك لمـن أراد أن يبحـث عـن ماضـيك ! وقـد اسـتخدم جهـاز المخـابرات المصـري هـذه الطريقـة لإدخال عميلهم السري رفعت الجمال الشهير برأفت الهجان إلى داخل تل أبيب بعد أن بنى علاقة وثيقة بيهود مصر وكأنه واحد منهم .

٢١ – التجنيد غير المباشر

عندما تنـدمج في شريحة معينـة مـن الإعلاميين بهـدف الحصول علـى معلومـات مهمـة عـن بعـض الشخصيات المطلوب التجسس عليها وقد تكون المعلومة المطلوبة هي تحديد برنامجه السنوي وأين سيقضـي هـذا الصيف وفي أي فنـدق ومع من وبوجـود الحراس أم لا وغيره ، فينبغي لـك أن تخطـو الخطوة الأولى عـبر مـا يجـذب إليـك الهـدف ، فالشخصـيات المهمـة لا تعطـي وقتهـا لأي أحـد مـن الصـحفيين إلا إن حصـل علـى توصـية أو كانـت جهـة إعلاميـة مهمـة كـالجزيرة مـثلا أو كانـت الصـحفية جميلـة ولا يـرد لهـا طلـب ! فيمكـن لنـا أن يـتم تجنيـد هـذه الصـحفية بعـرض مـالي مغـري لتحصل هي على المقابلة ونحصل نحن على مكان المقابلة ووقتها بالتحديد ونكون بذلك قد نجحنا أيما نجاح في هذه المهمة ، ويراعى هنا أن كل من يتعاملون معك في ذلك يظنون أنك تسعى لسبق صحفي لا أكثر ولا أقل !

٢٢ – زاد العميل السري المجاهد

مهمـة العميـل السـري تتطلـب وقتـا كافيـا لجـني الثمـار ، ويختلـف ذلـك بطبيعـة المهمـة وأهـدافها ، فهـي كرامـي السـنارة في البحـر ليصـطاد السـمك ولا يـدري مـتى يهتـز الخـيط ويلـتقط الطعـم ! وقـد يطول الوقت عليه ، وزاده الوحيد في ذلك هو الصبر والإحتساب وأن يوقن بأنه على ثغر من ثغور المسلمين وأنه في مكانه الذي هو فيه معرض للأسر أو القتل ، ومن كان في مكان مخوف ولا يأمن على نفسه فهو أحق الناس بوصف الرباط ، روى البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :((رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها))فأي

خير بعد ذلك ؟ وهكذا يجب أن يحدث نفسه بما يرفع همته ويقوي عزيمته حتى لا يمل من الإنتظار والترقب ، وإنما النصر صبر ساعة !

٢٣ – التفاصيل المهمة

لا يتصور عمل عسكري دون مرحلة استخبارية ولو صغيرة كالإستطلاع الفردي أو كالسرايا المتقدمة في الجيوش التي تقوم بمهمة الكشف عن كمائن العدو ، أما إن كان العمل العسكري قائم على أركان المعلومات الإستخبارية فلا يتصور بحال إمكانية تنفيذ هذا العمل فضلا عن نجاحه ، فالعمل الإستخباري جزء لا يتجزأ من العمل العسكري ، ولذا فإنه لا يوجد جيش في العالم إلا ونجد فيه جهاز للإستخبارات يقوم عليه أوثق الضباط وأكثرهم ذكاء وكفاءة ، لأن أي خطأ يحدث في المعلومات الإستخبارية فإنه يعود بشكل مباشر على نتيجة العملية ، ولنأخذ على سبيل المثال أول محاولة لإسقاط وتدمير برج التجارة العالمي عام ١٩٩٣ والتي قام بالتخطيط لها " رمزي يوسف " وهو أحد أهم صقور التيار الجهادي ، فالسبب الذي حال دون سقوط البرج هو أن المعلومات التي جمعها رمزي كانت كاملة عن كل ما يتعلق بالبرج من حيث المساحة والحجم والإرتفاع وساعة الذروة وإجراءات الأمن وطريقة التفتيش والكاميرات وغيرها ، فقام بتصميم القنبلة بالشكل المطلوب والمناسب لحساباته الهندسية الخاصة بالقوة التدميرية المطلوبة لإسقاط ركائز البرج لينهار من بعده ، ثم قام بتركيب القنبلة في داخل شاحنة معدة لذلك وتم إدخالها إلى مواقف برج التجارة العالمي في أسفل البرج بجانب القواعد الإسمنتية وتم التفجير بالفعل وقتل العشرات وأصيب المئات ولكن القواعد لم تنهدم لأنها تحتوي على الفولاذ من الداخل ، وهذه هي المعلومة التي غابت عن رمزي وأدت إلى فشل العملية في إسقاط البرج .

ونأخذ من ذلك أن العمل الإستخباراتي لا يكفي فيه المعلومات الأولية من غير تدقيق وبحث ومراجعة وطرح للإحتمالات المختلفة ، وقد من الله سبحانه وتعالى على المسلمين بإسقاط البرجين بعد ذلك في غزوتي نيويورك وواشنطن صيف عام ٢٠٠١م وقد كان من أهم صفات قائد العملية المهندس المعماري محمد عطا كما وصفه البروفسور الألماني المشرف على رسالته في الماجستير في

الهندسة المعمارية : (أنه كان مولعا بالتفاصيل) ، وقد ذكر الألباني في سلسلته الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه)) .

٢٤ – مقر السكن

يجب أن تكون طبيعة سكنك ملائمة لطبيعة عملك أو شخصيتك الجديدة ، فالتناقض بين الإثنين قد يقود إلى الشك وهي الكلمة التي يجب الإبتعاد عن كل ما يوحي إليها من قريب أو بعيد ، فرجل الأعمال لا يقبل أن يسكن في الأحياء الفقيرة ، والطالب الجامعي لا يعقل أن يملك فيلا فاخرة وأسطول سيارات وخدم وسكرتارية ، إنما السكن الجامعي قد يكون أفضل وأنسب له ، ويفضل الإبتعاد عن الأحياء الفقيرة في العمل الأمني عموما لأن ساكنيها يغلب عليهم الجلوس في الطرقات وملاحظة الداخل والخارج والشغف بمعرفة الساكنين الجدد وماذا يعملون وغيره ، بعكس الأحياء الغنية التي يكاد الجار فيها لا يعرف عن جاره أي شيء ، وهذا هو الجو المطلوب في العمل الأمني .وفي المهمات التي يكون فيها السكن مسرحا للدعوات الخاصة وبناء العلاقات المفيدة في مجال العمل يجب أن تراعى تصاميم الديكور بحيث تكون جميلة جذابة ومريحة حتى يساعد ذلك في إيجاد الجو النفسي الملائم للإسترسال في الحديث دون حدوث أي ملل أو انزعاج ، فبعض الأماكن تشعر المرء بالفرح والمرح والفرفشة كما كان الحال في كثير من منازل وفلل وشقق عملاء الموساد والغرب في استدراجهم للمسؤولين العرب ، وقد نجح في استخدام هذا الأسلوب أحد أكبر جواسيس إسرائيل في مصر وهو " باروخ نادل " اليهودي الذي استطاع الوصول إلى منصب مستشار قيادة الأركان الجوية !! من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٦٧ فقد نظم هذا الجاسوس حفلا صاخبا جمع فيه أكثر من ٤٠٠ طيار مع بعض الموظفات في السلك العسكري في القطاع الجوي ، وقد كان حفلا ماجنا بكل ما تحمله الكلمة من معنى ! إنتظر المستشار اليهودي إلى أن يسكر الجميع ثم قام بتقسيم الحضور إلى مجموعتين ، مجموعة طائرات الميغ وهي الذكور ، ومجموعة طائرات الميراج وهي الإناث وقال " سننظر الآن كيف ينقض الميغ المصري على الميراج الإسرائيلي " وبدأت الدعارة بأقبح صورها في الحفلة وإلى آخر الليل ، أما الحفلة الثانية التي كانت تدور أحداثها في نفس الليلة ولأجلها نظمت هذه الحفلة وبهذه الطريقة فهي الهجوم الجوي الإسرائيلي على مصر

عام٦٧ الذي استطاع فيه الطيران الحربي الإسرائيلي أن يدمر الطائرات الحربية المصرية وهي رابظة في المطارات العسكرية ، وذلك لأن سماء مصر كانت خالية تماما من طائرات المراقبة ، أما الطيارون فقد كانوا في سبات طويل بعد أن أمضوا ليلتهم الصاخبة وهم يبحثون عن الميراج لينقضوا عليه !! فانظر ما فعله يهودي واحد في ٤٠٠ طيارا تعبت الدولة وأنفقت على تدريبهم وتعليمهم سنوات طوال !

٢٥ – فن تمرير المعلومة

تتطلب بعض الخطط العسكرية إيصال وتلقين العدو معلومات مغلوطة بقصد التمويه والتشتيت والتضليل حتى تنفذ العمليات بشكل مغاير لما يتوقعه العدو ، كأن تكون المعلومات تشير إلى عمل عسكري في منطقة معينة ثم تكون العملية في مكان آخر ، أو أن القائد الفلاني قتل فتطير بها وسائل إعلام العدو ثم يظهر على الساحة من جديد فيؤثر ذلك على مصداقية العدو من جهة ويكون بمثابة تطعيم للأنصار والمؤيدين ضد الأخبار المعادية من جهة أخرى ، وهو ما كان يحدث في كل مرة يختفي فيها الشيخ أسامة بن لادن ثم يعاود الظهور من جديد . وتتوقف الطريقة المثلى لتمرير المعلومة على المراد منها ، فهناك معلومات نقصد انتشارها على نطاق واسع كما فعل عمر بن الخطاب لما أخبر بإسلامه "جميل" وقال له " أكتم عني " ، فركض يصيح بها في مكة كلها لأنه مشهور بإذاعة الأخبار . وهناك معلومات نحيطها بسرية مزيفة ليصطادها العدو بشكل طبيعي عبر أجهزة التنصت الخاصة به ، أو من خلال جواسيسه الذين يعملون بيننا ، ولا غرابة في ذلك ، فساحات الجهاد مرتع خصب لعملاء دوائر الإستخبارات العالمية ، بل إن أحد هؤلاء الجواسيس وصل لمرتبة " قائد جبهة " في أفغانستان سابقا ، وقد كان مشهورا بتشدده في الدين بل إنه كان يمر على المجاهدين وهم يلعبون كرة الطائرة فيبكي ويقول "كيف تلعبون وأخواتكم يغتصبن في السجون ؟ " وعندما وردت المعلومات بخصوصه لم يكن أحد يتوقع ذلك ، ولكنه عندما أخضع للتحقيق الشديد والمركز على أيدي محققي القاعدة الذين كانوا متأكدين من صحة المعلومات التي وردتهم من مصادرهم ، اعترف بأنه كان يعمل برتبة لواء في جيش صدام حسين وأنه عميل مزدوج للإستخبارات الأمريكية والموساد الإسرائيلي !

٢٦ – استراتيجية العمل

من المهـم لكل عميل سري أن يصنع استراتيجية للعمل يحدد فيها الهدف بشكل دقيق ، ويضع لذلك مجموعة تكتيكات مناسبة للوصول إلى الهدف بسهولة ويسر ، فإن قلنا أن الهدف من المهمة التجسسيه هو معرفة أماكن السجون السرية التابعة للمخابرات الأمريكية في العالم وعدد المحتجزين فيها ونظام الحراسة في كل سجن ، فقد تبدو هذه المهمة شبه مستحيلة لعدم اعتراف الولايات المتحدة بوجودها بشكل رسمي ولقلة المعلومات حولها وللحساسية الأمنية للموضوع ، ولكن على قدر أهل العزم تأتي العزائم !

إن أي سؤال طائش وغير مدروس عن مثل هذه الأمور قد يؤدي بصاحبه إلى مكاتب " السين – جيم " في دوائر الأمن ، وفي تصوري أن الخطوة الأولى في هذا العمل هو البحث عن مفتاح العمل ، فقد تكون الإجابات التي نبحث عنها متوفرة عند أطراف محايدة كالمنظمات الحقوقية التي لا تكل ولا تمل من البحث عن مثل هذه المواقع وطبيعة العمل فيها ، ولهم طرق خاصة للوصول لمثل هذه المعلومات وذلك لأن كثيرا من المسؤولين في الدول يتعاطفون مع الوظيفة الإنسانية لهذه المؤسسات ، أو لأن المسؤولين في تلك الدول يدلون بتلك المعلومات نكاية في أمريكا ، فإن لم نجد هذه المعلومات في تلك المنظمات و لم تكن المعلومات كافية فعندها نخطط بدقة لتقمص هذا الدور والقيام بهذه المهمة بالنيابة عنهم ، فالتجارب أثبتت أن العمل في مجال حقوق الإنسان هو الوحيد القادر على الوصول لأدق التفاصيل حول تلك المواضيع المحاطة بهالة من السرية والغموض ، ثم تأتي الخطوة الثانية في تحديد الشخصية التي سنستسقي منها المعلومات ، وهو بالطبع أحد عملاء السي آي إيه العاملين في أحد هذه السجون السرية أو قد يكون أحد أفراد الأمن في الدول التي تستضيف هذه السجون السرية كالأردن التي اتضح أن فيها الكثير من السجون السرية التابعة للإستخبارات الأمريكية ، وهذه الخطوة هي الأكثر صعوبة وخطورة وتتطلب الكثير من الوقت في البحث والمتابعة والمراقبة ، فإن نجحنا في الحصول على بعض الأسماء نقوم فورا بعمل تحقيق أولي لاختيار الشخصية التي سنعمل معها ونركز على الرتب المتدنية والذين يعانون من مشاكل مادية ، ويفضل أيضا أن يكون من غير البيض لأن السود والذين يرجعون لأصول مكسيكية وغيرهم من

الأقليات هم الأكثر شعورا بالإضطهاد والتميز في أمريكا ، فقد يقودهم شعورهم هذا إلى التعاطف مع القضايا الإنسانية ، والذي جرب الأسر في المعتقلات الأمريكية كسجن غوانتنامو يعرف تماما أن الجنود السود والملونين هم الأكثر رحمة ولطفا وتعاطفا من الجنود البيض ! ثم يتم الإتصال به مباشرة أو عن طريق وسيط – راجع فقرة التجنيد غير المباشر – ونعرفه بأننا جماعة حقوقية مخولة من قبل أهالي بعض المفقودين للبحث عن أبنائهم ، وقد أعلمنا من مصادر رسمية أنك تعمل في إحدى المعتقلات التي يحتمل وجودهم بداخلها ، وهذا يعرضك للمسؤولية القانونية أمام محكمة حقوق الإنسان الدولية – أسلوب ترهيبي – أما إن قررت التعاون معنا وتخفيف المعاناة عن أمهات وزوجات وأبناء المعتقلين فإن هذا التعاون سيكون محل تقدير من قبل المنظمة والأهالي على حد سواء ، وسنضمن لك في هذه الحالة السرية التامة عن جميع المعلومات الخاصة بك ، وستحصل على الجائزة المالية الخاصة بالخدمات الإنسانية – أسلوب ترغيبي – . والجانب المادي ضروري في التعامل مع المجتمع الأمريكي لطغيان المادة عليه ، فلا تكاد تجد أحدهم يفعل شيئا هكذا دون مقابل ! والحقيقة أن فقرة عرض الموضوع حساسة جدا ويجب أن تخضع لترتيبات نفسية وتقديم وتأخير في المواضيع حتى تتم الإستجابة بالشكل المطلوب . ثم ننتقل إلى المرحلة الأخيرة وهي طرح الأسئلة فنسأله عن الوضع الصحي للمعتقلين وهل يعانون من مشاكل نفسية وهل الغذاء جيد وهل يسمح بقراءة الصحف والمجلات واقتناء الكتب ؟ وبين هذه الأسئلة نلقي الأسئلة المطلوبة فنبدأ بمثلا :

هل عملت في كل السجون السرية ؟ (لنتعرف على العدد المبدئي) ثم هل تعتقد أن هناك سجون أخرى ؟ كم عدد الذين تعرضوا للإيذاء الجسدي ؟ (لنتعرف على العدد المبدئي أيضا) هل تعتقد أن الجميع تعرضوا لذلك ؟ وهكذا نصيغ الأسئلة بشكل صحفي وفي قالب إنساني ولا تظهر أبدا أنك مهتم بتحديد المواقع أو معرفة الطبيعة الأمنية لها حتى تدخله في دوامة الحديث ليتكلم من تلقاء نفسه ، ولن تفعل حتى تشعره بأن ما يقوم به هو في الأصل عمل إنساني يخدم القيم الأمريكية التي تدعو إلى حماية الحريات الشخصية والحقوق الإنسانية لجميع سكان العالم ، وأنه يقوم بخدمة عظيمة للمجتمع الأمريكي بفضح المسؤولين عن هذه التصرفات التي تسيء لسمعة أمريكا .

ولاحظ معي أن السيناريو السابق قد مر بعدة خطوات للوصول إلى الهدف ، فإن لم تفلح هذه التكتيكات فعندها نأخذ الإذن من القيادة للقيام بعملية خطف لهذا العميل بعد أن يتم استدراجه لمكان معد لذلك ، ثم نقوم بعملية إستجواب وتحقيق تحت التعذيب لنحصل على كل المعلومات التي تنقصنا وبالقوة ثم نتخلص من الجثة ونغادر البلد .

٢٧ – التجسس قصير المدى وبعيد المدى

الأول يقصد به عملية الإستطلاع اللازمة للعمليات العسكرية لتحديد مواقع العدو وقواته وغيرها ، والثاني الهدف منه معلوماتي بحت : أي أنه لا يترتب عليه شيء معين في الوقت الحاضر ، ولكنه كالمجس في الغرفة يلتقط كل شيء ثم تختار منه ما تريد ، وهذا النوع الثاني هو الموجود غالبا بين الدول وهو ما نطمح إليه لأهمية المعلومات العسكرية والسياسية والاجتماعية الخاصة ببعض الدول التي ستكون بإذن الله مسرحا لتحركاتنا العسكرية المرتقبة ! والنقطة التي تستوقفنا هنا أن الدول الأقل قوة قد لا تكون جريئة في القيام ببعض العمليات العسكرية أو التهديد بها [ما عدا المناورات العسكرية] ولكنها جريئة فيما يختص بالعمل الإستخباري ، فمع أن إسرائيل حليفة لأمريكا وتحت حمايتها إلا أن لها جواسيس داخل أمريكا ، وما إن يتم القبض على أحدهم حتى يظهر آخر وهكذا ، وقد علق مدير وكالة الإستخبارات الأمريكية السابق ريتشارد هيلمز على قضية عميل الموساد جوناثان جي . بولارد الذي ثبت تورطه بأنشطة تجسسيه في داخل أمريكا لصالح إسرائيل ، فقال : إنه ليس أمرا غريبا أن تتجسس الدول الصديقة على بعضها البعض ، وقال : أنت تفعل كل ما بوسعك أما إن ضبطت فتلك هي الخطيئة !

أما بالنسبة للدول العربية فكل دولة تتجسس على الأخرى وتختلف النسبة بحسب الحساسية الأمنية ، وتتولى السفارات التابعة لهذه الدول عملية متابعة الجاسوس واستلام التقارير منه أولا بأول ، فسوريا مثلا كان لها جاسوس في الكويت يعمل كبائع للبوظة مدة خمسة عشر عاما ! وهذا يمثل التجسس بعيد المدى ، والإستخبارات السعودية قامت بإنزال مظلي لأحد ضباطها في الأراضي الكويتية بعد دخول العراق الكويت مباشرة لمراقبة التحركات العسكرية للجيش العراقي وهل

ستتقدم باتجاه السعودية أم لا ؟ ثم تم سحبه بعد انتهاء المهمة وهذا يمثل التجسس قصير المدى .

٢٨ – قاعدة أمنية : ابتعد عن الحمقى دائما

يذكر الفقهاء في باب الجهاد أنه يحق للأمير أن يطرد المخذلين والمثبطين من صفوف الجيش حتى لا يؤثروا على معنويات الجنود ، أما الحمقى والذين تكثر منهم الأخطاء فقد يكون خطرهم أقل إن كانوا ضمن الجيوش النظامية لوجود من يقودهم ويأخذ على أيديهم ، أما في حروب العصابات والعمليات الإستخبارية فليس لهم أي مكان البتة لأن الخطأ الأول قد يكون الأخير ، وقد قال الشاعر :

لا تصحبن الأحمق المائق الشمقمق *** عدو سوء عاقل ولا صديق جاهل !

٢٩ – الإستخارة

هذه العبادة بالذات يجب أن تكون ملازمة للعميل السري قبل شروعه في أي خطوة ، فكثير من الإختيارات تكون مفتوحة المجال أمام العميل ولا يدري أيها أصلح ، وكثير من المواقف أيضا تجعلك في حيرة بين إقدام وإحجام ، ففي كل ذلك يجب أن تدرك أن المجهود البشري في دراسة المعلومات والإحصائيات والتجارب السابقة كلها تتوقف عاجزة عن معرفة ما الذي سيحدث في الدقيقة القادمة [وما تدري نفس ماذا تكسب غدا] إلا أن علام الغيوب قد شرع لعباده صلاة الإستخارة ليبث في قلوبهم السكينة والطمأنينة والإنشراح تجاه أي أمر توجهوا إليه فيه ، وقد جاء في الأثر " ما ندم من استشار ولا خاب من استخار " .

٣٠ – لا تتواجد في المكان الخطأ !

ما الذي أتى به هنا ؟ هذا السؤال يفتح بابا كبيرا من الشكوك حول صاحبه ، فمن المعروف أن طبيعة المكان تحدد طبيعة من يرتاده ، فإن كان هناك تناقض بين العميل والمكان الذي يتواجد فيه ظهرت نتيجة لذلك علامة استفهام كبيرة حول الموضوع ؟ قد تنتهي بكشف حقيقة العميل فقط لأنه تواجد في المكان الخطأ ! جاء في السيرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل عمرو بن أمية

و ندب معه سلمة بن أسلم إلى مكة وقال لهما : إن أصبتما منه – أي أبي سفيان – غرة فاقتلاه . قال ابن اسحاق : وفي رواية لما قدما مكة حبسا جمليهما ببعض الشعاب، ثم دخلا ليلا، فقال له صاحبه: يا عمرو لو طفنا بالبيت وصلينا ركعتين ثم طلبنا أبا سفيان، فقال له عمرو: إني أعرف بمكة من الفرس الأبلق، أي وإن القوم إذا تعشوا جلسوا على أفنيتهم، فقال: كلا إن شاء الله، قال عمرو: فطفنا بالبيت وصلينا، ثم خرجنا لطلب أبي سفيان، فلقيني رجل من قريش فعرفني، وقال: عمرو بن أمية فأخبر قريشا بي، فهربت أنا وصاحبي . . . وصعدنا الجبل، وخرجوا في طلبنا، فدخلنا كهفا في الجبل .انتهى. فعمرو بن أمية وصاحبه من المسلمين ومكة هي معقل المشركين يومئذ ومن الطبيعي أن يكتشف أمرهم لوجودهم في هذا المكان ، وكذلك الحال إن كنت تعمل في الجمعيات الماسونية أو مع الطوائف اليهودية ثم يأخذك الحنين لتصلي العيد مع جماعة المسلمين في نفس المدينة !

٣١ – حياة جديدة

العميل السري رجل إزدواجي الشخصية لأنه يتكلم ويأكل ويقرأ ويمشي ويضحك على غير عادته ومألوفه ، فهو في الباطن رجل مستقيم وفي الظاهر قد يكون علماني أو شيوعي أو صهيوني أو صليبي حاقد على الإسلام والمسلمين بحسب الدور المطلوب منه ، ومسألة التوفيق بين الشخصيتين ليس بالأمر السهل ولا الصعب أيضا لمن استعان بالله وحقق نقاط التوازن بين كل شخصية ، فقد تحتم بعض الظروف القاهرة على المسلم أن يستخفي بإيمانه كما كان حال الصحابة في العهد المكي ، ونحن عندما نتكلم عن الجاسوسية فنحن نتكلم عن حياة مهددة بالقتل والتنكيل إن أكتشف أمرها ، ولذا كان لزاما على العميل السري أن يحيط نفسه بسلسلة عادات ومعاملات تبعد عنه أي شبهة ! وتأمل معي في فتوى الشيخ / أحمد ابن بو جمعة المغراوي ثم الوهراني لأهل الأندلس عام ٩١٠ للهجرة عندما ابتلوا بفتنة التنصير ، وانظر مدى البون الشاسع بين حالتي الأمن والخوف وما يترتب عليهما لتعرف كيف يمكن أن تكون عليه حياة العميل السري المجاهد إن اضطرته ظروف العمل على التعايش بنفس نمط حياة البيئة المراد التجسس عليها ، وفيما يلي نص الفتوى مع التنبيه أن هذه الفتوى جاءت في ظروف عصيبة لم يأت على الإسلام والمسلمين مثلها

:

"الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما" اخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته. وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، بعد السلام عليكم من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيدالله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني. كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من اخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم، ان لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع وان الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله. فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور وإن منعتكم فالصلاة قفاء بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء وعليكم بالتيمم ولو مسحاً "بالأيدي للحيطان" فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتمّم به، فأقصدوا بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله صلى الله عليه وسلم فأتوا منه ما استطعتم. وإن اكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وأنووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وأن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرّم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك

بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيَّرتموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم ثم ليس عليكم إلاّ رؤوس أموالكم وتتصدقوا بالباقي، إن تبتم لله تعالى وإن اكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئنين القلوب بالإيمان ان نطقتم بها ناكرين لذلك وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَدْ، فاشتموا مُمَداً، ناوين انه الشيطان أو مُمَد اليهود فكثير بهم اسمه وإن قالوا عيسى توفى بالصلب فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره إظهار الثناء عليه بين الناس وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به. وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولابد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً. بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خبره "يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى" . انتهى كلامه .

٣٢ – مهارات العمل الإستخباراتي :

هناك قاعدة فقهية تقول " ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " وهي أصدق ما تكون في وظيفة العميل السري لأن الجاسوسية نسق من مجموعة تخصصات تساعد على أداء المهمة على أكمل وجه ، وقد يكون بعضها أهم من بعض ، وقد يحتاج العميل منها تخصصا أو اثنين ، وقد يحتاجها كلها حسب طبيعة المهمة وما يلزم لها ، ونستطيع أن نجمل القول عن هذه التخصصات بالآتي :

أمنيات الحاسوب : أمنيات الحاسوب وبرامج التشفير الخاصة بالرسائل البريدية والهاتف الخليوي كذلك ، وإتقان هذه الإجراءات الأمنية ضروري جدا لضمان عدم الإختراق من أي طرف آخر ، ولأن هذه الوسائل تتطور بشكل مطرد فيجب متابعة كل جديد عن هذه البرامج ، هذا من الجانب الدفاعي أما من الجانب الهجومي فيمكن لك إن تمكنت من إتقان أساليب اختراق أجهزة الكمبيوتر أن تستغل ذلك مع من يراد التجسس عليهم بعد أن تحصل منهم على المفاتيح المطلوبة لعملية الإختراق .

فن تغيير الشكل : تستطيع بحركات بسيطة أن تغير ملامحك القديمة دون الحاجة إلى عمليات تجميل ، فقط بشفرة الحلاقة وبعض مساحيق التجميل التي تستخدم في تفتيح لون البشرة وغيره ،

ثم تختار نظارة مناسبة وقبعة أو غطاء للرأس وتخرج . وأذكر هنا أن بطل الثورة الكوبية " جيفارا " أراد أن ينقل الثورة الشيوعية إلى إفريقيا ولكن خشي أن تعرف الإستخبارات الأمريكية بأمره ، فقام بتغيير شكله بطريقة مختلفة مع أنه لم يفعل إلا أن حلق لحيته وشاربه ولبس نظارة طبية ذات إطار عريض " للتغطية على ملامح العين " وقبعة فقط ، ثم ظهر بشكل مختلف لا يكاد يتعرف عليه من لا يعرفه جيدا ، ومن الغرائب في هذا الموضوع هو أن أحد المجاهدين المسجلين على لائحة أهم المطلوبين للإستخبارات الأمريكية ورد في تقرير مذكور عنه أن المخابرات الأمريكية تعلم أنه استطاع تغيير شكله واحدا وعشرين مرة من غير أن يكتشف !

اللغة : طبعا لا يتخيل أن هناك عميلا سريا يتجسس على الفرنسيين وهو لا يعرف اللغة الفرنسية ! كذلك الحال مع أي بلد تذهب إليه في مهمة استخبارية لأنك تحتاج لأن تتحدث إلى الناس بما يفهمون ، وقد جاء في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأحد أصحابه ((تعلم كتاب اليهود فإني لا آمنهم على كتابنا)) وقد أتقن الصحابي الجليل زيد بن ثابت رضي الله عنه اللغة العبرية – لغة اليهود – في أربعة عشر يوما !

الثقافة : يجب أن يكون العميل السري ملما بفكرة عامة عن البلد – مجال العمل – من حيث تاريخه ونظامه السياسي والإقتصادي وطبقات المجتمع وأهم المشاكل التي تعاني منها ، وأن يدقق النظر في أهم نقاط القوة المسيطرة على الدولة من الإتحادات أو الجمعيات أو الكنائس أو العائلات ذات النفوذ الواسع ، لأن طبيعة عمل العميل السري قد تحتاج إلى داعم قوي من أحد المذكورين السابقين .

اللعبة القتالية : يحتاج العميل السري إلى إتقان إحدى الألعاب الفردية القتالية الخاصة بقتال الشوارع للدفاع عن نفسه في المواقف الحرجة ، أو للتخلص من أي اعتقال مفاجئ باليد ،أو لعمليات الخطف السريعة ، كما كان يقوم به أفراد جهاز " الشاباك " الإسرائيلي عندما كانوا يلبسون الزي الفلسطيني ويدخلون ضمن المظاهرات في الشوارع ، فإن تقدمت قوات الشرطة

الإسرائيلية وأطلقت النار عليهم بدأت الجموع بالهرب وعندها يمسك أفراد الشاباك بآخر الهاربين بعد أن يضربوه ضربا خاطفا على رأسه بقطع الحديد المدببة المثبتة في يد كل واحد منهم ومن ثم يتم اعتقالهم .

السموم : علم المواد السامة وطريقة استعمالها من العلوم المهمة للعمليات الإستخبارية الخاصة بالإغتيالات لأنها لا تحدث أي ضجة ويمكن نقلها بسهولة كبيرة من دون أن يشك أحد بالأمر ، وقد حقق المجاهدون عدة نجاحات في استخدامها على مستوى محدود ، والحقيقة أن فاعلية استخدام السموم تتوقف على فاعلية العمل الإستخباري الذي يوصل المادة إلى دفة باب مكتب الشخصية المراد اغتيالها أو إلى يده مباشرة بعد السلام عليه ومصافحته ، وقد نجح الموساد الإسرائيلي في تسميم خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس عام ١٩٩٧ ولم ينج من الموت إلا بعد أن تدخل ملك الأردن الهالك حسين عند اليهود ليعطوه المصل المضاد للسم !

المتفجرات وطرق التفخيخ : اتجه القائمون على عمليات الإغتيال إلى الإعتماد على المتفجرات وطرق التفخيخ المعقدة للتأكد من موت ضحاياهم ، وذلك للدمار الكبير الذي تحدثه تلك العبوات سواء وضعت تحت مقعد السيارة أو تحت جسر في إنتظار عبور موكب أو داخل كاميرا فيديو كما فعل المجاهدون في عملية اغتيال أحمد شاه مسعود عام ٢٠٠١م .

القنص الإحترافي : شخصية القناص فيها تطابق كبير مع شخصية العميل السري من حيث التمويه والصبر والمراقبة وسرعة الحركة والإختفاء وعدم الإرتباك وغيرها . . . والحقيقة أني أفضلها كثيرا لأنها تخترق معظم اجراءات الحماية للشخصيات المهمة ، لأن اجراءات الحماية تكون حول الشخصية المراد اغتيالها و حيث أن عمل القناص يكون من على مساحة بعيدة جدا عن الموقع قد تصل إلى أكثر من كيلو مترا ، فهو من ناحية في مكان آمن وبعيد في ونفس الوقت ينتظر القيام بعملية جراحية دقيقة للوصول إلى قلب الضحية أو رأسه متى ما سنحت الفرصة بذلك ! وقد استخدم القنص الإحترافي بنجاح في عملية اغتيال الرئيس الأمريكي كينيدي عام ١٩٦٣ وهو في

موكبه وبين حرسه وجنده ! ويستطيع العميل السري أن ينمي قدراته في القنص عن طريق نوادي الرماية المنتشرة في العالم ،ويستطيع الحصول على المعدات اللازمة المتطورة للقناصة الآلية ، كالمناظير الدقيقة وقواعد التثبيت وغيرها من محلات بيع لوازم الصيد ، ولكن من المهم له أن يصنع حقيبة إخفاء لجميع المعدات بعد تفكيكها حتى يسهل دخوله وخروجه من أي مكان دون أن يثير الشكوك حوله . وإن كانت العملية تتطلب كواتم صوت وهي غير متوفرة فيستطيع العميل أن يستخدم " السهام الحديدية " بدلا من القناصة الآلية وهي آلة خطيرة لمن يتقن استخدامها ، وتستخدمها فرق القوات الخاصة في عملياتها المختلفة .

ويلاحظ من خلال هذه النقاط أن العميل السري قد يشكل لوحده كتيبة من التخصصات العسكرية هذا إن كان المطلوب منه القيام بجميع الأدوار وإلا فإن عمل العميل السري في الأصل يقتصر على العمليات الغير عسكرية ، أي على الجانب المعلوماتي فقط كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة بن اليمان يوم الأحزاب ((قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم ولا تذعرهم علي)) وقوله " ولا تذعرهم علي" أي لا تعمل ما من شأنه إثارة العدو علينا واقتصر على معرفة نواياهم ، وقد جاء في بقية الحديث أن حذيفة بعد أن أتم مهمته رأى زعيم الأحزاب سفيان بن حرب لوحدة وفي معزل عن الناس بعد أن أمرهم بالرحيل فهم حذيفة أن يرميه بسهم ليغتاله ولكنه تذكر أمر النبي صلى الله عليه وسلم " ولا تذعرهم علي " فتراجع عما هم به ، وهذا الأمر فيه ذكاء خارق من النبي صلى الله عليه وسلم الذي أدرك أن طول فترة الحصار الذي تفرضه قوات الأحزاب حول المدينة والأحوال الجوية القاسية التي يعانون منها بجانب العمل الإستخباري الفريد الذي قام به نعيم بن مسعود في ضرب الأحزاب بعضهم ببعض ، قد أدرك أن هذا كله سوف يؤتي ثماره عن قريب بإذن الله تعالى وأن أية إثارة للعدو في هذا الوقت قد تعطيه ذرائع إضافية للإستمرار في الحصار والقتال كما كان يمكن أن يحدث فيما لو تم إغتيال زعيم الأحزاب سفيان بن حرب وهذه لمحة من لمحات القيادة الفذة للنبي صلى الله عليه وسلم .

٣٣ – مصادر المعلومات

تعتمد أجهزة الإستخبارات العالمية على شبكة ضخمة من مصادر المعلومات وكلما تنوعت مصادر استسقاء المعلومات كلما وضحت الصورة أكثر فأكثر ، وقد إزدادت مصادر المعلومات مع الزيادة المطردة في التطور التكنولوجي لوسائل الإتصالات المختلفة وأصبح هناك ما يعرف بالتجسس الإلكتروني وهو عن طريق إختراق أنظمة وبرامج الكمبيوتر في المواقع الحساسة كالبنتاغون وغيره وأصبح القانون يجرم مثل هذه الأفعال ويلاحق المتسببين فيها ، والحقيقة أن هذه المصادر مهما بلغت من التنوع والتطور فإنها لا تستغني بأي حال من الأحوال عن التجسس المباشر عن طريق الجواسيس المحترفين لوجود بعض المعلومات التي لا يمكن استخراجها إلا عن طريقهم ، فنجد مثلا أن الموساد الإسرائيلي يعتمد في جمع معلوماته على ما بين ٦٥ إلى ٦٠ ٪ من وسائل الإعلام المتنوعة وحوالي ٢٥ ٪ من الأقمار الصناعية وأجهزة الإتصالات المختلفة وما بين ٥ إلى ١٠ ٪ عن طريق الإتصال المباشر وما بين ٢ إلى ٤ ٪ من العملاء والجواسيس وتحتوي هذه النسبة الضئيلة على أهم المعلومات الإستخبارية على الإطلاق وهذه النسب السابقة هي التي تدرس في أكاديمية الموساد كما ذكر أستروفسكي في كتابه (عن طريق الخداع) والذي شرح فيه بعض الإستراتيجيات والتكتيكات المتبعة في الموساد . .

٣٤ – تعدد الأهداف

توضع اللبنات الأساسية للمشاريع الإستخبارية بشكل مرن يتيح لها تحقيق أكبر قدر من الفوائد المعلوماتية والمالية أي أن المشروع الناجح هنا هو الذي يوفر لنا المعلومات والأموال والغطاء وغيره من الفوائد المهمة في عالم الإستخبارات ، والحقيقة أن اليهود هم أفضل من يخطط لهذه النوعية من المشاريع المربحة من كل وجه ، ولا أدل على ذلك من – مشروع موسى – الذي قامت به الموساد الإسرائيلي عام ١٩٨٥ بهدف تهريب يهود الفلاشا ، فبعد أن احتدمت الحرب الأهلية والمجاعة في أثيوبيا قام العديد من الأثيوبيين باللجوء إلى السودان ومن بينهم يهود الفلاشا ، فأوكلت الحكومة

الإسرائيلية إلى الموساد مهمة تهريبهم إلى إسرائيل وقد بدت المهمة شبه مستحيلة لوقوف الدول العربية في وجه هذه المحاولات التي تسعى إلى زيادة أعداد المستوطنين اليهود في إسرائيل ، ولكن الموساد بدأ يخطط بعد دراسة مستفيضة للسودان لإيجاد غطاء تتم من خلاله عملية التهريب فاستقر على إنشاء منتجع سياحي ومدرسة للغوص على الساحل السوداني على البحر الأحمر تكون إدارتها وموظفيها من أعضاء وضباط الموساد ثم يتم إنشاء مدرج مطار في عرض الصحراء للإشراف على عملية الإجلاء الجوي ليهود الفلاشا عن طريق طائرات الهيركوليز العملاقة ، وبالفعل تم إنشاء المشروع بعد أخذ موافقة الحكومة السودانية – بالرشاوي – وكان العمل يتم باسم مستثمرين أوربيين وما إن أعلن عن افتتاح المشروع السياحي حتى حجزت جميع الأماكن فيه وبدأ يدر أرباح عالية ، وفي ظل هذه الأجواء التجارية الناجحة كانت تجري عملية إجلاء وتهريب يهود الفلاشا من معسكرات اللاجئين في السودان إلى مدرج المطار المؤقت ومن ثم إلى تل أبيب مباشرة وقد استخدم هذا الخط الجوي في تهريب يهود اليمن أيضا فأصبح هذا المشروع من أكثر المشاريع نجاحا في سجل الإستخبارات الإسرائيلية .

مشروع (المصنع) عام ١٩٩٣

قام المجاهدون بشراء وإدارة أكبر مصنع للخبز في أذربيجان في منتصف التسعينات وقد كان هذا المصنع يضم أعداد كبيرة من الأيدي العاملة وله طاقة إنتاجية ضخمة وقبل ذلك كله فهو يقع في أذربيجان وهي دولة محاذية للشيشان التي يخوض فيها المجاهدون إحدى أعتى حروبهم ضد الكفر العالمي ، فرأت بعض القيادات أن إمتلاك هذا المصنع وإدارته ستوفر لنا مجموعة من الفوائد نحن في أمس الحاجة إليها في ظل الحرب المشتعلة في الجوار والتي تتطلب مركز دعم لوجستي تكون إدارته بالقرب من أرض المعركة كما كانت بيشاور أيام الغزو الروسي لأفغانستان ، فوقع اختيار المجاهدين على هذا المصنع كمشروع دعم للقضية الشيشانية على وجه الخصوص وتم تأمين وتغطية الصفقة بالكامل عن طريق تجار من الإمارات ، أما الإدارة المباشرة فقد كانت للمجاهدين تحت غطاء تجاري بحت وبمتابعة شخصية من القائد خطاب رحمه الله وبدأ العمل في المصنع تحت إدارته الجديدة بجد ونشاط وأصبح يوفر للمجاهدين سلة من الفوائد العظيمة منها أن هذا المشروع كان

يوفر غطاء جيد للوجود الجهادي على أرض أذربيجان وكان أيضا يقدم دعم مالي كبير للقضية الشيشانية من الأرباح الكبيرة التي كان يحققها المشروع وهذا بالإضافة إلى إدارة عمليات التنسيق الخاصة بإدخال المجاهدين إلى أرض الشيشان بعد وصولهم إلى العاصمة الأذربيجانية (باكو) وقد كان موقع المجاهدين هناك يعطيهم فرصة ذهبية لتقديم الدعم اللوجستي المطلوب في العمليات القتالية داخل الأراضي الشيشانية ، وقد طرحت في تلك الفترة فكرة إنشاء قوة تدخل سريع في تلك المنطقة الإقليمية لزيادة الضغط على الروس من جهة الجنوب ولكن القائد خطاب رأى أن ذلك سيثير بعض الدول على المجاهدين ، ومع أن مشروع المصنع لم يستمر طويلا للظروف الأمنية الطارئة في ذلك الوقت إلا أنه شكل تجربة مفيدة وفريدة عادت على المجاهدين بالخير الوفير فرحمة الله على من كان خلف ذلك العمل الرائع .

٣٥ – قراءة الإشارات الدلالية

يحرص المحققون وخبراء القضايا الجنائية على ألا يمس مسرح الجريمة أي تغيير ، ولذا نجد أن رجال الأمن يضعون شريطا لاصقا يحدد المنطقة المحظورة الدخول ويلتزمون أيضا بعدم لمس أي شيء إلا من خلف قفاز أو ما شابه حتى لا تذهب البصمات القديمة ، لأن مسرح الجريمة كما قال أحد المحققين : عبارة عن كتاب تستطيع قراءته إن فككت رموزه وفهمت إشاراته التي تدل كل واحدة منهما على أمر معين . وقد جاء في غزوة بدر أن أبا سفيان استدل على وجود جيش المسلمين بالقرب من بدر عن طريق روث الإبل الذي وجد فيه نوى التمر فعرف بفطنته أنها لإبل يثرب التي تعلف عادة التمر !

فغير بناء على هذه المعلومة اتجاه القافلة وأنقذها من الوقوع في قبضة المسلمين .

والنبي صلى الله عليه وسلم استدل أيضا على عدد قوات قريش في بدر من عدد الإبل التي كانت تنحر لهم كل يوم ، فعندما جاءت السرية التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم إلى ماء بدر لتلتمس له الأخبار بغلامين لقريش فسألهما النبي صلى الله عليه وسلم : (كم القوم ؟) قالا : كثير ، قال : (ما عدتهم ؟) قالا : لا ندري ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (كم ينحرون

كل يوم ؟) فقالا : يوما تسعا ويوما عشرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (القوم فيما بين التسعمائة والألف) !

وقد تعترض العميل الكثير من الإشارات التي تدل على أمر معين وقد يكون هذا الأمر ذا درجة عالية من الخطورة كالحرب مثلا ، فالموساد الإسرائيلي يمتلك نوعا من الجواسيس يستخدمهم فقط في التقاط إشارات التحذير من الخطر كالممرضين في المستشفيات العامة ، لأن زيادة عدد أجنحة المستشفى بصورة مفاجئة قد تكون إشارة للإستعداد للحرب إن حصلت في البلد إجراءات أخرى تدل على نوع استنفار وتجهيز ، فهذه الإشارات قد تتم في جو هادئ لا يوحي بشيء ولكنها قد تكون الهدوء الذي يسبق العاصفة ، وأذكر هنا أن الإجراءات التي كانت تتم قبل الغزو الأمريكي للعراق بعام ونصف تقريبا كانت تحمل تأكيدا على أن هناك تحركا عسكريا قادم ، وإن كانت الأجواء السياسية لا توحي بذلك ، وكنا نقول أن هناك حربا ستقع لا محالة ولكن الكثيرين كانوا يردون : لا نرى شيئا من ذلك !

٣٦ – تقنيات التجسس

أعطت التكنولوجيا الحديثة مساحة أوسع لممارسة عمليات التجسس فبين كل فترة وأخرى تظهر نوعيات جديدة من المعدات والتقنيات الإلكترونية التي تساعد أجهزة المخابرات على أداء مهماتها وقد تطورت أشكال وأحجام وقوة هذه الأجهزة بشكل مطرد لدرجة أنك تجد جهاز لاقط بحجم ثقب الإبرة وكاميرا بحجم حبة الأرز !

هذا بالإضافة إلى التطور التكنولوجي الهائل في أجهزة التشفير الرقمية والشرائح الإلكترونية الخاصة بتحديد المواقع وطائرات التجسس بدون طيار وغيرها ، ويجب هنا على العميل السري مسألتين الأولى تتمثل في الاستفادة من هذه التكنولوجيا وتوظيفها في خدمة مهمته الإستخبارية ، والثانية في إتباع الأساليب التي من شأنها تعطيل مهمة هذه الأجهزة إن استخدمت ضده ، وفي كلا الحالتين يجب عليه متابعة كل جديد في هذا المجال عبر تقارير المجلات الأمنية والمجلات التي تهتم بعالم الإستخبارات وأن يولي المعارض الدولية التي تهتم بالأجهزة الحديثة اهتماما خاصا لأنها المكان الأول الذي يكشف فيه عن الإختراعات الحديثة والتي قد تخدم وتزيد فاعلية العمل الإستخباري

وقد توصل المجاهدون عبر التجارب العديدة مع أجهزة التنصت وكاميرات المراقبة وشرائح تحديد المواقع إلى بعض الوسائل التي تكشف عن وجود مثل هذه الأجهزة مهما بلغت في التخفي والصغر كاستخدام الكاميرات العادية والكشف من خلال عدساتها عن الشرائح الإلكترونية التي يصدر عنها أشعة غير مرئية للعين المجردة ولكن يمكن رؤيتها والكشف عنها من خلال عدسة الكاميرا وبذلك نفوت الفرصة على ملقي هذه الشرائح والذي يعتمد على عدم رؤيتنا لها خاصة في الظلام ، وهناك طريقتين للكشف عن كاميرات وميكروفونات التنصت التي قد توضع في غرف الفنادق ، فللكشف عن أجهزة التسجيل : ضع الراديو الصغير على موجة ١٩.٢١ FM وابحث عن مكان التشويش وعند اكتشاف مكان جهاز التسجيل غير موجة الراديو إلى ٨٨.٨٧ MW وأبقه منخفض الصوت حتى تحصل على تشويش معاكس !

أما كاميرات المراقبة فضع الراديو الصغير على موجة ١٩.٣٣ FM وتمشى في الغرفة فإن زاد التشويش فاعلم أن هناك كاميرا مراقبة وهنا أحضر ليت صغير أو ليزر صغير وأطفئ الأنوار وابحث عن الكاميرا فإذا خرج لمعان من مكان ما فهو انعكاس الضوء على عدسة الكاميرا .

٣٧ – أكاديمية التجسس

تعتمد الأساليب التعليمية للعمل المخابراتي على التلقي المباشر من ذوي الخبرة والاختصاص من أصحاب التجارب الغنية في حقل الإستخبارات وقد اعتمدت هذه الطريقة في معهد التدريب الخاص بالموساد في اسرائيل بحيث يشرف على كل فصل تعليمي ضابط قديم ممن شاركوا في عمليات كبيرة وناجحة فينقل بذلك خبراته الخاصة لمن بعده وهي طريقة جيدة لتعلم هذا الفن ، وبناء على ذلك فكل قصة لعمل استخباري ناجح تعتبر مادة دسمة في أكاديمية التجسس ، وتعتبر قصة الجاسوس الإنجليزي المعروف بلورنس العرب وقصة العميل السري المجاهد د.همام البلوي من القصص المفيدة في معرفة طبيعة العمل التجسسي والمخابراتي وما يتطلب لكل منهما والمتمعن في قصتي لورنس ود.همام يرى أنهما حققا الكثير من الشروط اللازمة لنجاح العمل الإستخباري ، وقد اخترت هاتين القصتين لأن الأولى مثلت عمل مخابراتي موجه من العدو ضدنا والثانية مثلت عمل

مخابراتي موجه منا نحن ضد العدو ، ولنبدأ أولا بقصة العميل السري لورنس ثم قصة د.همام البلوي رحمه الله :

[لورنس العرب]

جاء في الموسوعة الحرة – ويكيبيديا – في ترجمة لورنس العرب ما يلي :

توماس إدوارد لورنس (١٦ أغسطس ١٨٨٨ – ١٩ مايو ١٩٣٥) ضابط إستخبارات بريطاني اشتهر بدوره في مساعدة القوات العربية خلال الثورة العربية عام ١٩١٦ ضد الإمبراطورية العثمانية عن طريق انخراطه في حياة العرب الثوار وعرف وقتها بلورنس العرب.
قال عنه ونستون تشرشل: "لن يظهر له مثيل مهما كانت الحاجه ماسه له"
التحق لورنس بجامعة اكسفورد سنة ١٩٠٨ ووطد علاقته بأساتذة المشهورين من امثال رجينالد لان بول. اعجب لورنس بشخصية نابليون بونابرت الذي كان معرفا بقصر قامته مثل لورنس فقد كان قصير القامه فاهتم بدراسة الهندسة والاستراتيجية العسكرية وبحث التاريخ العسكري.
في نهاية عام ١٩٠٨ قام لورنس بعمل اثار اعجاب كل من حوله فقد طلبت الكلية بحثا ميدانيا حول التاريخ العسكري. فسافر لورنس إلى فرنسا على متن دراجته الهوائية قاطعا مسافة ٢٤٠٠ ميلا لتحصيل هذا البحث. كان يتناول في الرحلة الحليب والثمار الطازجة ولا يهتم الا ببحثه. عندما رأى والده هذا النبوغ أعد له غرفتي في حديقة منزله بعيده عن صخب المنزل ليعيش فيها بمفرده ويتفرغ لنجاحه

رحلات لورنس للشرق

اقترح لورنس على استاذه العالم الأثري المعروف هو غارت أن يقوم بزيارة لمنطقة الشرق لأنها مشهورة بحضاراتها وحفرياتها. قام لورنس بالأعداد لرحلته بتعلم بعض قواعد اللغة العربية التي

تساعده على التواصل مع الاخرين. تقدم لورنس لمدير الكلية الياسوعية بجامعة اكسفورد بطلب للاتصال بالسلطات التركية بهدف تزويده بكتاب تاريخي وأثري يسهل مهمته.
سافر لورنس على سفينة منغولية متجهة إلى الشرق في ١٨ يونيو ١٩٠٩. رست السفينة على شواطئ بيروت لتبدأ رحلته الاستكشافية. اعتمد في تنقلاته على التحرك على قدميه لمسافات أميالا طويلة. وصلت سفرياته على الأقدام إلى ١٣ ساعة في بعضها مما اثار إعجاب المحيطين به من أهل المناطق. ورغم انه كان يصطحب معه مرشدا سياحيا لحمايته وارشاده إلا أن ذلك لم يمنعه من مواجهة مخاطر كادت أن تودي بحياته إما من الحيوانات المفترسة أو من السرقة والسطو.
توجه في زيارته إلى صيدا والنبطية ثم إلى قلعة بيوفورت وواصل رحلته حتى وصل إلى وادي الأردن ثم البحر الميت. كان يقضي نهاره مسافرا وبالليل كان يطرق أبواب أهل المناطق الذين يعتبرونه غريبا واجبا اكرامه وضيافته. وصل في رحلته إلى طرابلس واستقر في المدرسة التبشيرية الأمريكية. وقد اعجب بعمل هذه المدرسة. وصل إلى قلعة الحصن في سوريا في ١٦ أغسطس. قضى فيها ثلاثة أيام يتفحصها بدقة. كانت رحلته بها الكثير من العناء والمخاطر مما أصابه بالإحباط وضعف إمكانياته فقرر العودة إلى بلاده لضرورة التقدم بأوراق دراسته ومهمته لاعتماده طالبا مجتهدا.
في طريق عودته إلى إنجلترا رست السفينة في ميناء نابولي الايطالي فقام بجولة سريعة للتعرف على عادات وتقاليد أهلها. وقد اشترى تمثال برونزي معروض للبيع نظير ثماني فرنكات واهداه إلى جامعة أكسفورد.
حصل على بكالوريوس العلوم من أكسفورد في ٢٨ يوليو ١٩١٠. توجه لورنس إلى بيروت مرة أخرى في ١٠ ديسمبر ١٩١٠. في هذه الأثناء كان لورنس يتحدث اللغة العربية بطلاقه. اتجه لورنس إلى طرابلس لفحص اثارها. وقد شاهد خلال الرحلة القلاع الصليبية المتناثرة في أماكن عديدة. وقد ألف فيما بعد كتابه الذي أسماه "القلاع الصليبية"
أصيب لورنس بمرض الدوسنتاريا. وقد اعتنى به في هذا المرض الشيخ حمودي مساعده في أعمال الحفر والبحث والفتى دوحان الذي استضافه في مرضه في بيته. عاد لورنس إلى إنجلترا في ١٢ أغسطس بغرض أن يعوض ما فقده من تعب في مرضه. في أغسطس عام ١٩١١ عاد لورنس إلى طرابلس. نصحه البعض لزيارة مصر لمطالعة الآثار الفرعونية. توجه لورنس إلى الإسكندرية ثم

القاهرة ومنها إلى قرية كفر عمار. لم يعجب لورنس بعمل التنقيب في المقابر وكان يستاء من منظر المنقيبين وهم يقطعون المومياوات ومن الروائح الكريهة المنبعثة منها مما جعله يمقت مصر ويقفل عائدا إلى [طرابلس].

قام ببناء سكنه خاصة بعلماء بحث الآثار في منطقة بيريدجيك. في هذه الأوقات كان لورنس يتحدث اللغة العربية مثل أهل المناطق العربية بطلاقة تامة. في هذه الأثناء كان الألمان يسعون لبناء خط حديدي ضخم بين بغداد وبرلين. شعر بضخامة هذا الخطر على المصالح البريطانية. فتوجه إلى القاهرة لمقابلة اللورد كتشنر وتوضيح الأمر له. فوجئ بأن اللورد على علم بالخبر وأخبره أنه راسل السلطات البريطانية كثيرا بهذا الشأن إلا أنه لم يلق الرد المناسب. وأخبره بأنه يتوقع قيام حرب في غضون عامين وهو ما حدث في الحرب العالمية الأولى.

لورنس ضابط مخابرات

قامت الحرب العالمية الأولى وأعلنت الدولة العثمانية الحرب على إنجلترا. في هذه الأثناء كانت الدولة العثمانية تعاني من كراهية العرب لحكمها نتيجة التفرقة بين الأتراك والعرب والظلم والقهر الذي مارسه الأتراك في هذا الشأن. سعت إنجلترا في الاستفادة من امكانياتها في المنطقة لتحقيق نصر في الحرب. فقام السير "جليبرت كلايتون" باستدعاء لورنس بعد أن ذاع صيته كعالم آثار إلى مكتبه بمقر القيادة العليا للجيوش البريطانية في القاهرة. أمر كلايتون بتعيين لورنس في قسم الخرائط. وكانت هذه هي الفرصة الوحيدة للتثبت من صحة الخرائط بالواقع. ظهرت عبقرية لورنس في هذا المجال كما امتدت آراؤه للخطط العسكرية في هذا الشأن. فقام كلايتون بنقله إلى قسم المخابرات السرية. كان لورنس يحفظ المواقع التركية عن ظهر قلب مما ساعد الإنجليز كثيرا. استغل لورنس علاقاته بالعرب لإيهامهم أنه يريد مساعدته لمواجهة الغطرسة التركية وقد ساعدته معرفته باللغة العربية لإضافة مصداقية له في هذا الشأن.

لورنس في الجزيرة العربية

لورنس في رابغ شمال جده ١٩١٧

انتقل لورنس إلى الجزيرة العربية ليقف على حقيقة الثورة العربية المشتعلة ضد الأتراك بقيادة الشريف حسين. تقابل لورنس مع الأمير عبد الله الأبن الثاني للشريف حسين. كان لورنس يبحث عن شخصية الزعيم والقائد للثورة التي يمكن أن تساندها إنجلترا.

طلب لورنس من الأمير عبد الله أن يأذن له بالتجول في البلاد ليقف على حقيقة الوضع ويرفع به تقرير للقيادة العامة في القاهرة. وبعد موافقة الشريف حسين على الهاتف، أرسل الأمير عبد الله خطابا لشقيقة الأمير "على" ليرافق لورنس ويضمن سلامته. استخدم لورنس الزي العربي للتنقل في الجزيرة قد تحدث العربية على أنه عربي من حلب.

لم يجد لورنس في الأمير عبد الله ولا الأمير على تلك الشخصية القيادية التي يبحث عنها. ثم التقى بعد ذلك بالأمير فيصل النجل الأكبر للشريف حسين. وقد وجد لورنس في شخصية فيصل ما كان يبحث عنه. تباحث لورنس مع فيصل في وضع الثورة ونجاحاتها وإخفاقاتها وتبين له أن الهجوم الأول للثوار على المدينة المنورة قد فشل نتيجة استخدام الأتراك للأسلحة الحديثة وخصوصا المدافع التي أثارت الرعب في نفوس العرب لجهلهم بها أو كيفية استخدامها.

قام لورنس بتفقد قوات الشريف المتمركزة في منطقة الخيف وقد اختبر كفاءة هذه القوات حتى يستطيع اخبار القيادة العامة في القاهرة. كان لورنس شديد الاعجاب بالشعور الوطني لدى النفوس المتمثل بالقومية العربية والبعيد كل البعد عن النزعات العقائدية ولا علاقة لها بالإسلام. وادرك أن الثورة التي يقودها الشريف حسين ثورة عربية قومية وليست إسلامية مما أطرب مشاعر لورنس. تمنى لورنس لو أن مصر تلحق بركب الثورة القومية بوصفها أكبر البلدان العربية والإسلامية وأن ايمانها بالقومية العربية على حساب الإسلام سيدفع بالثورة إلى الأمام.

مساندة الإنجليز للأمير فيصل

قفل لورنس عائدا إلى القاهرة ولكنه في ميناء جده تقابل مع سفينة الميرال "ويمس" المتجهة للسودان للقاء مستر "ريجالد وينت". ولمعرفة لورنس باهتمام ريجالد بالثورة العربية فقد اتجه مع ويمس إلى الخرطوم حيث قابل ريجالد وأطلعه على نتائج زيارته للجزيرة العربية ثم اتجه إلى القاهرة.

في هذه الأثناء كان رئيس البعثة العسكرية الفرنسية في جدة "بريموند" يرى ضرورة تدخل القوات البريطانية مع الفرنسية مباشرة في الحجاز وهو ما عارضه لورنس بشده حيث كان رأيه أن تدخل القوات الأجنبية مباشرة سيفقد الثورة تأثيرها ويثير الروح العقائدية ويمنع كثير من مؤيدي الثورة لمحاربة الأتراك المسلمين. وقد أكد لورنس للقيادة العامة أن القوات العربية تستطيع مجابهة الأتراك والصمود لفترات طويلة اذا تم تزويدهم بالأسلحة والخطط الفنية التي وعدهم بها لورنس. وقد اقتنعت القيادة البريطانية العامة في القاهرة برأي لورنس مما اشعل الضغينة بينه وبين بريموند.

عودة لورنس إلى الجزيرة العربية

قررت القيادة البريطانية اعادة إرسال لورنس إلى الجزيرة العربية ليكون بجانب الأمير فيصل ويعمل كمستشاره الذي يتحمل مسؤولية اتخاذ القرارات وتوجيهاته. عاد لورنس في ٣ نوفمبر إلى ميناء ينبع ليجد الأمير فيصل وقد لحقت به هزيمة ساحقة وقاسية على أيدي القوات التركية أثناء محاولة الأمير فرض حصار على المدينة المنورة لكن سلاح الطيران التركي استطاع فك هذا الحصار.
رست السفن البريطانية المحملة بالأسلحة الحديثة لمساندة الأمير فيصل كما أراد لورنس. عمل لورنس على تجاوز اثار الهزيمة وتدريب قوات الأمير بسرعة على استخدام الأسلحة الحديثة. في هذه الأثناء حاولت القوات التركية استغلال الانتصار الساحق على قوات الأمير فاتجهوا لملاحقته في معسكره. انطلقت صفارات الإنذار في ينبع تحذر من اقتراب القوات التركية على بعد ثلاثة أميال. اجتمع الأمير فيصل مع لورنس في خيمته وخرج منها ليعطي أوامره للجنود بوضع الاستعداد ورفع الأيدي على الأسلحة والسكون والهدوء التام. وفجأة انقطعت الحياة تماما في معسكر الأمير فيصل. هذا السكون أثار خوف القوات التركية التي اعتادت على تتبع العرب عن طريق ضوضاء طبولهم وأناشيدهم الحماسية. فقرر قادة الأتراك إيثار السلامة والانسحاب. كان لهذا الانسحاب عظيم الأثر في نفوس قوات الأمير التي ظنت ان القوات التركية لا تهزم.

عاشت القوات التركية بعد هذا الانسحاب حالة من الخوف واليأس خصوصا بعد أن داهمتهم الأمراض والأوبئة وأوشكت المؤن على النفاد. علم لورنس بذلك من خلال جواسيس الأمير فيصل فقرر اغتنام الفرصة.

منذ عودة لورنس إلى الجزيرة العربية والصراع قائم بينه وبين بريموند المقتنع بضرورة التدخل الإنجليزي الفرنسي المباشر في الصراع. كان الكولونيل ويلسون القائد الإنجليزي يميل إلى رأي لورنس على حساب رأي بريموند. بيد أن القيادة العامة في القاهرة بدأت تقتنع برأي بريموند لذلك أعدت قوة بريطانية فرنسية مستعدة للتدخل في الحجاز وارسلت خبراء لتقييم الوضع والتمهيد لهذه القوة.

قرر لورنس تجاهل هذا الأمر والاسراع في استغلال الوضع السئ للقوات التركية مما زاد من حقد وكراهية بريموند. أعد ويلسون خطة لتغيير الوضع في الجزيرة. فخطط بأن تقوم قوات الأمير عبد الله بحصار المدينة المنورة بينما تقوم قوات الأمير زيد –الأبن الأصغر للشريف حسين– بالزحف على مواقع البحر الأحمر. ويقوم الأمير فيصل باحتلال ميناء (وجه). فضلا عن ست مدمرات بريطانية تقوم بعملية إنزال ضخمة لخمسمائة جندي عربي وعدد من الجنود البحرية البريطانية بقيادة (بوبل).

في ٢٨ يناير تحركت قوات الأمير فيصل وقد رافقه لورنس. كان أحد القادة البريطانيين ويدعى "فيكري" يرافق الأمير فيصل. كان "فيكري" يتحدث العربية بطلاقه بكافة لهجاتها بينما لورنس يتحدثها بلهجة أهل حلب فقط. كان "فيكري" يرى في لورنس مجرد طالب آثار لا علاقة له بالعسكرية. كل هذا اثار لورنس الذي خاف على مكانته عند الامير وتهديدها من "فيكري". عمد لورنس إلى أقذر الأساليب لتعجيز "فيكري" فكان يتندر به ويتهكم عليه ويسخر من أمام قوات الأمير مما دفع "فيكري" إلى ترك قوات الأمير متجها إلى معسكر بوبل على ان يتزامن هجوم بوبل مع هجوم الأمير على الميناء.

وحين وصلت قوات فيصل وجدت الضابط "فيكري" والقائد "بوبل" قد انهيا المعركة وانتصرا على الأتراك دون انتظار الأمير فيصل الذي قطع مسافة طويلة ورحلة مضنية مما اثار حنق لورنس والأمير فيصل. بعد الانتصار ألقى "فيكري" خطابا مطولا عن الانتصار. وبعد أن فرغ منه فوجئ بلورنس وهو ينتقده ويتهمه بإغفال العرب الذين قاتلوا في المعركة وماتوا فيها وبأنه قد ارتكب خطأ عظيما

أهدر به الكثير من المال والأرواح التي كان يمكن انقاذها لو أنه انتظر مجيء قوات الأمير وتنفيذ الهجوم المتزامن.

لورنس بين شيوخ القبائل العربية

في هذه الأثناء كانت قوات الشريف حسين تسيطر على مكة المكرمة والطائف وينبع ورابغ ووجه في حين أن القوات التركية تسيطر على المدينة المنورة. لذلك كان الوضع في الجزيرة العربية صعبا جدا بالنسبة للأتراك مما أثار شهية القوات البريطانية التي قررت زيادة دعمها للقوات العربية.

من هنا بدأ لورنس خطة جديدة لاستقطاب شيوخ وزعماء القبائل والعشائر العربية وضمها في صفوف الثورة. فذهب إلى زعماء القبائل بصفته مبعوث الأمير فيصل وتحت حراسته يتفاوض معهم حتى استطاع اقناعهم بوقف الحروب فيما بينهم والانضمام للثورة.

كان من هؤلاء الذين اعلنوا تأييدهم للثورة "جعفر باشا" والزعيم المعروف "نواف الشعلان" والزعيم "عودة أبو تايه". بعد ذلك عرض لورنس على الأمير فيصل ضرورة احتلال العقبة لإنهاء وجود الأتراك في هذا الميناء الحيوي.

العقبة

بعد أن اجتمع رجال القبائل تحت إمرة الأمير فيصل تحركت قواته صوب العقبة. رافق لورنس هذه القوات في رحلتها الطويلة في الصحراء القاحلة وتعرضت لأخطار كثيرة أبرزها قلة المؤن والعطش الشديد ومواجهات متفرقة مع الأتراك. استمرت رحلة هذه القوات ثمانية أسابيع قضاها لورنس اما راكبا أو ماشيا حتى وصلت إلى العقبة. وفور وصولها قرر لورنس الذهاب سريعا إلى السويس للمطالبة بدعم القوات البريطانية بالمؤن والطعام. ترك لورنس القوات العربية عند العقبة تحت قيادة الزعيم "عودة أبو تايه". ثم اتجه لورنس صوب السويس ومنها إلى القاهرة. وقد وعده الإنجليز بإرسال مؤن عاجله إلى القوات في العقبة.

فوجئ لورنس لدى وصوله إلى السويس بأن الجنرال اللمبي قد تم تعيينه قائدا عاما خلفا للقائد "مورى" الذي أقيل وعاد إلى لندن. تقابل لورنس مع اللنبي في القاهرة وقد فوجئ الأخير بمنظره حيث كان يرتدي ملابس عربية بدوية وقدمية حافيتين.

استفاض لورنس في شرح الموقف للجنرال اللنبي حتى استطاع كسر جمود تفكيره –الجنرال اللمبي– وحرصه الشديد الذي اشتهر بهما واثار حماسته لمساندة القوات العربية. كان لورنس في هذه الأثناء يضع احتلال دمشق نصب عينيه ورأى انها المحطة القادمة بعد العقبة.

عرض لورنس على الجنرال اللمبي فكرة سلخ جيش الأمير فيصل عن جيش الشريف حسين ونقل الأمير فيصل والقاعدة الإنجليزية من ميناء وجه إلى ميناء العقبة حتى تكون هذه القاعدة هي الجناح الأيمن لجيش اللنبي. وقد تطلع لورنس في هذه الأثناء لدور أكبر في فلسطين داعما فكرة الوكالة الصهيونية العالمية في أطماعها. وافق اللنبي على هذا الاقتراح ولكن بقيت مهمة اقناع الشريف حسين بهذا الأمر.

اتجه لورنس مع الجنرال ويلسون لمقابلة الشريف حسين في جده. وقد توقع لورنس أن يثور الشريف حسين إلا أنه فوجئ به يوافق في هدوء. وقد أدرك لورنس أن السبب في ذلك هو سيطرة الجنرال ويلسون على الشريف حسين وقوة تأثيره عليه. في هذه الأثناء كان الوضع في العقبة قد استتب بعد نجاح "عودة أبو تايه" في احتلالها.

سقوط القدس

بعد احتلال العقبة سعت القوات التركية بشتى الطرق محاولة استعادة هذا الميناء المهم. فدفعت بتعزيزاتها صوب العقبة وجرت مواجهات عنيفة انتهت بسحق القوات التركية وانتصار الثوار خصوصا بعد أن نجح لورنس في استجلاب دعم الطيران الإنجليزي من الجنرال اللنبي ووصول الطائرات البريطانية إلى العقبة. وكانت أشد هذه المواجهات في منطقة أبو لسان.

بعد ذلك اعتمد لورنس على حرب العصابات. فقام بتنفيذ الكثير من عمليات زرع الألغام على خطوط السكك الحديد التركية وجنى من هذه العمليات انتصارات كبيره ساعدته على تثبيت اسمه.

اتجـه بعـد ذلـك لـورنس للقـاء الجنـرال اللنـبي وقـد توقـع مـن الأخـير أن يغـدق عليـه مـن الأوسمـة والنياشـين. بيـد أن اللنـبي كـان يـرى ضـرورة صـرف الانتبـاه مـن مجـرد حـرب علـى السـكك الحديـدة لحرب مباشره لتنفيذ أطماع بريطانيا في فلسطين. فتكلم مع لورنس بغطرسه اثارت حنقه. تحدث اللنبي مع لـورنس علـى ضـرورة اشعـال الثـورة العربيـة بالشـكل الـذي يسـمح بتأليـب الشـعوب لتجـني بريطانيا ثمار هذه الثورة بأقل تكاليف.

نجح اللنبي في صرف انتباه الأتراك نحو غزه حيث أوهمهم بأنه عازم على احتلال غزه مما دفع الأتراك إلى التأهـب والاستعداد في حـين أنـه نفـذ هجـوم قاسـي علـى أضـعف المنـاطق التركيـة ممـا اسـهـم في تحقيق انتصارات سهله أمام المشاة الإنجليز.

اتجه لورنس بنفسه إلى الدرعا للاستيلاء عليها قبل أن يجني اللنبي هذه الثمرة بعد كل هذا التمهيد مـن جانـب لـورنس والأمـير فيصـل. ولأنـه اتجـه وحيـدا فقـد وقـع في أيـدي الأتـراك الـذين لم يعرفـوا شخصيته. أوهمهم لورنس بأنه شركسي ولكنهم أصروا على أن يمثل بين يدي "ناهي بك" الحـاكم التركي. سرت شائعه بعد ذلك بأن "ناهي بك" قد أقام علاقه شـذوذ بلـورنس إلا أن هـذه الإشـاعة لا يمكـن التأكـد مـن مصـداقيتها وقـد تكـون وشـاية مـن جانـب الإنجليـز بالحـاكم التركـي. المهـم أن لورنس نجح في أن يتحرر من قبضة الأتراك وعاد كما كان ولكنه كان محمل بخيبة أمل الهزيمة التي تعرض لها في الدرعا وكان يخشى من مواجهة اللنبي المتغطرس المنتصر.

بعد عودته علم أن اللنبي نجح في احتلال القدس وانه يريد مقابلته في اليوم التالي. تقابل لـورنس مـع اللنبي وقد لاحظ الأخير مدى تأثر لورنس بالهزيمة التي تعرض لها. فوعده –اللنبي– بـأن يضـع خطـه عسكريه لإشعال فتيل الثورة العربية مما أطرب لورنس.

قـام لـورنس بتنفيـذ هـذه الخطـة فقامـت القـوات العربيـة بمهاجمـة "الطفيلـة " وبعـد شـد وجـذب مـع القوات التركية وتبادل النصر والهزيمة نجحت القوات العربية في احتلال "الطفيلة" في عام ١٩١٨. وعاد الأمل للورنس مره أخرى بعد أن نجح في قطع خطوط مواصلات الجيش التركي عبر البحر الميت.

سقوط دمشق وانتهاء الثورة

اتجه لورنس إلى مقر القائد العام اللنبي في القدس حيث اتفقا على ضرورة زيادة دعم الأمير فيصل باعتباره القائد القادم للثورة. مما دفع اللنبي إلى التعهد بتحمل كافة نفقاته وأرسل اليه مع لورنس مبلغ ثلاثمائة ألف جنيه وجمال محمله بالمؤن.

في هذه الأثناء لمع نجم نوري السعيد كنائب وقائد في صفوف قوات الأمر فيصل. وقد عينه فيصل بعد ذلك رئيسا للحكومة في العراق.

اتفق لورنس مع الأمير فيصل على تنفيذ الخطة المعدة مسبقا بين لورنس واللنبي. تقوم الخطة على تنفيذ هجوم من بلدة أريحا في الخامس من مايو ١٩١٨ واحتلال مدينة السلط وبلدة معان وتدمير خط السكك الحديدة جنوب عمان. وقد أعد لورنس مع "نوري السعيد" القوات المتأهبة للحرب.

احتلت القوات البريطانية مدينة السلط لكن الجيش التركي بقيادة القائد التركي العنيد "جمال باشا" العنيد استطاع استعادة مدينة عمان والسلط ثم كثرت الأقاويل عن قرب سقوط القدس المقر العام للنبي. ولكي يتأكد لورنس من هذا الوضع فقد تخفى في زي نساء البدو وتسلل إلى عمان ولاحظ الهرج في شوارع المدينة بعد أن عاث الأتراك فسادا في شوارع عمان لمحاكمة الخونة والعملاء.

سقطت مدينة السلط مرة أخرى في يد الإنجليز ثم استعادها الأتراك. ومن أجل ذلك ألتقى اللنبي مـع لـورنس حيـث طلـب الأخـير بضـرورة حسـم الحـرب بتـدخل القـوات الجويـة بقيـادة الجنـرال "سالموند". وطلب لورنس من اللنبي امداده بالهجانة. وقد أذعن اللنبي لهذه الطلبات.

عاد لورنس مع فرقه الهجانة ووعود بتدخل القوات الجوية البريطانية إلى الأمير فيصل وقد أصبح الطريق ممهدا إلى دمشق.

فكر لورنس في العودة إلى بلاده بعد احتلال دمشق وصرح بذلك للأمير فيصل الذي أصر على ضرورة استمرار لورنس معه. كانت رؤية لورنس هي أن الهدف الأساسي أمامه طرد الأتراك من الجزيرة العربية وهيمنة القوات البريطانية والتمهيد لمشروع الدولة اليهودية الذي صاغه ثيودور هرتزل ووعد به آرثر جيمس بلفور وزير خارجية إنجلترا في سنة ١٩١٧ فيما يعرف بوعد بلفور.

طلب لورنس من الأمير فيصل أن يطلب من والده امداده بفرقه عسكرية. وقسم لورنس الجيش إلى ثلاثة أقسام: ١. قسم يدافع عن معان

٢. قسم يهاجم قطاع درعا ودمشق

٣. قسم يتجه للنبي الذي سوف يدخل دمشق بعد انسحاب الأتراك من فلسطين

اتجه لورنس إلى الشريف حسين لأقناعه بالأمر. إلا أنه فوجئ بالشريف حسين يتنصل من مقابلته متعللا باعتكافه في مكة مما يصعب على لورنس الوصول اليه لأنه غير مسلم ممنوع من دخول مكة. كان الشريف حسين يرى أن ابنه الأمير فيصل لا ينصاع لأوامره كأخوته علي وعبدالله وزيد. وأنه ينفذ أرتمى في أحضان الإنجليز وأنه ينفذ أوامرهم فحسب. ومن أجل ذلك أصدر قراره بتعيين "جعفر باشا" قائدا للجيش العربي واتبعه بعد ذلك بقرار بعزل الأمير فيصل من كافة صلاحياته. وتواردت الرسائل بين الشريف حسين ولورنس واللنبي حتى نجح لورنس في اقناع الشريف بالعدول عن قرار عزل الأمير فيصل حتى لا تفشل الثورة.

ظهرت الضغينة بين أفراد العائلة الواحدة التي باعت نفسها منذ البداية للإنجليز. ولكن الحقد في تفضيل الإنجليز للأمير فيصل. احتشد الجيش العربي تحت قيادة الأمير فيصل مدعوما بالإنجليز. وقد قام لورنس بإذهال الأتراك عندما نسف الجسر الواصل بين درعا ودمشق مما عزل درعا تماما استعدادا للهجوم الكبير بقيادة اللنبي. انطلق لورنس على رأس قوات نوري السعيد لنسف جسر اليرموك ومحطة البنزين. في صباح ١٩ سبتمبر ١٩١٨ بدأ هجوم اللنبي الكبير. توغلت القوات البريطانية داخل مدينتي حيف ونابلس وقامت بتدمير الفرق السابعة والثامنة للجيش التركي.

في "أم الطايع" ضغط شيوخ القبائل العربية بضرورة استغلال الوضع وتنفيذ هجوم على دمشق الأمر الذي رفضه لورنس لعدم وجود غطاء جوي. وأمام هذا الضغط طار لورنس إلى الجنرال اللنبي للتباحث معه.

وضع لورنس خطة على شن ثلاث هجمات عنيفة على الأتراك: ١. هجوم على مدينة عمان عبر فرقة الجنرال "شايتور" ٢. هجوم الفرقة الهندية بقيادة الجنرال "بارو" في منطقة درعا ٣. هجوم الفرقة الأسترالية بقيادة الجنرال "شوفيل" على مدينة دمشق.

واختتم لورنس خططته بضرورة توفير غطاء جوي.

بدأت المعارك وقد شهدت هذه الحرب الكثير من المذابح –من الطرفين– التي يندى لها الجبين والتي راح ضحيتها الكثير من الأطفال والنساء دون أدنى احترام للعهود والمواثيق وتعاليم الإسلام لأي من الطرفين. اتجه الزحف على كافة الأصعدة حتى وصل إلى دمشق. كانت مخاوف اللنبي من غضبة الجماهير السورية الرافضة لأي وجود إنجليزي والخلفية العقائدية لمساندة الحكم الإسلامي. بحث لورنس مع الأمير فيصل كيفية اقناع السوريين بتأييد الإنجليز في مواجهة الأتراك. كانت لجنة الأمير فيصل التي يترأسها "علي رضا" و"شكري باشا الأيوبي" في دمشق تستعد لإدارة شؤون المدينة حال انهيار الحكم التركي تفاديا لفراغ سياسي قد يؤدي إلى نتائج غير مرغوبه من الأمير فيصل.

قرر لورنس والشريف ناصر –أحد حلفاء الامير فيصل– إرسال أحد رجال الشريف ناصر لفتح قناة اتصال بين لورنس واللجنة. فوجئ مبعوث الشريف ناصر بأن "علي رضا" قد أرسل من قبل الأتراك لقيادة الجيش التركي المنسحب من منطقة الجليل هربا من مواجهة الفرقة الأسترالية بقيادة "شوفيل" وأن "شكري باشا الأيوبي" قد تلقى دعما هائلا من الأخوين الجزائريين "عبد القادر" و"محمد سعيد" لتشكيل حكومة وطنية ورفع الأعلام أمام الجيش التركي والألماني المنسحب. كان لورنس يكره الأخويين الجزائريين بشده حيث وصفهم بضيق نظرتهم وتعصبهم الديني وبأنهم كانوا يساعدون الأتراك عندما كانت الغلبة لهم.

دخل لورنس مع الشريف ناصر إلى دمشق مع ظهور أول الصباح. وكان الشريف ناصر يتلهف لدخول المدينة في المساء إلا أن لورنس حذره من ذلك لخطورة الظلام وأقنعه بأن ذلك ليس من مكانة الشريف ناصر بل عليه دخول دمشق في وضح النهار. اتجه الشريف ناصر صوب سراي الحكومة وسط تأييد شعبي. علم لورنس أن الجنرال "شوفيل" قد وصل إلى جنوب دمشق فأسرع إليه يطلب منه أن يبقى يومين خارج المدينة لتهيئة الأوضاع ومنعا لإثارة الجماهير.

أصدر لورنس قراره بتعيين شكري باشا الأيوبي حاكما عسكريا ونوري السعيد قائدا للقوات المسلحة ساعيا بشتى الطرق لتهميش دور الأخويين الجزائريين. مما دفع الأخوين لمحاولة اغتيال لورنس لولا تدخل الشيخ "نوري شعلان" -أحد حلفاء الأمير فيصل- وعودة أبو تايه واعلانهم أن لورنس تحت حمايتهم.

حاول الأخوان اثارة القلاقل عن طريق تنظيم ثورة جماهيرية كبيرة بعد اثارة الجماهير واقناعه بأن الحكومة الجديدة عميلة للأجانب وأن الهدف منها انهاء الخلافة الإسلامية. سارع لورنس إلى "نوري السعيد" الذي قام بنشر الفرق العسكرية في المناطق الاستراتيجية في المدينة والقبض على كل من يتظاهر ضد الحاكم العسكري "شكري باشا الأيوبي". بعد استتباب الأمن وفي صباح اليوم التالي وصل الجنرال اللنبي إلى دمشق بمرافقة الجنرال كلايتون والجنرال كونواليس وقد أظهروا جميعا امتنانهم للورنس.

تبع ذلك وصول الأمير فيصل إلى دمشق وقد حرص لورنس على استقباله لدى وصوله على متن القطار. هنا طلب لورنس من الجنرال اللنبي بالسماح له بالعودة إلى إنجلترا بعد انتهاء مهمته وتحقيق اهدافه. وأمام اصرار لورنس سمح له اللنبي بالعودة. نجحت الثورة وانتهت بعد تنصيب فيصل ملكا على العراق والأمير عبد الله ملكا على الأردن برعاية اتفاق بين الأثنين برعاية اللنبي.

. لورنس، الأمير عبد الله الأول بن الحسين، الجنرال سالموند قائد القوات الجوية البريطانية، السير هربرت صموئيل، وغيرهم.

عودة لورنس إلى إنجلترا

عاد لورنس إلى إنجلترا. وفي عام ١٩٢٠ بدأ في كتابة كتابه الشهير "أعمدة الحكمة السبعة" حتى انهاه في عام ١٩٢٥. ألتحق لورنس بعد ذلك تحت اسم مستعار بسلاح الجو الملكي. والواقع أنه عانى كثيرا من الضغط العصبي جراء الحياه الصعبة التي عاشها وخصوصا بعد أن أصبح مطلوبا من العرب المعارضين لثورة الشريف حسين وانكشاف أنه عميل للمخابرات البريطانية.
في عام ١٩٣٤ تلقى إنذار بقرب اعفاؤه من سلاح الجو الملكي مما أصابه بانهيار عصبي.

مقتله

قضي لورنس بقية حياته في كوخ في شمال "بوفينجتون". في عام ١٩٣٥ توفي عن ستة واربعين عاما بعد سقوطه من دراجته النارية التي كان يقودها بسرعة كبيرة في محيط مدينة اكسفورد وهو عائد إلى البيت من مكتب البريد بحادث قيل أنه كان مفتعلا.
دفن في مقبرة موريتون بعد تشييعه في جنازه مهيبة حضرها شخصيات سياسية وعسكرية مهمة ورموز للمجتمع البريطاني الأرستقراطي مثل ونستون شرشل، لورد لويد، ليدي آستور، الجنرال وفل، اغسطس جون وغيرهم، إضافة إلى حلقة من اصدقائه الذين يدعونه باسم تي.اي.شو.
وقد تم تشييد تمثال نصفي له أمام كاتدرائية القديس بول في لندن.

[د.همام البلوي]

كان د.همام البلوي أو أبو دجانة الخراساني يتمتع بشخصية فذة كانت تحمل صفات ضابط الإستخبارات المثالي في داخلها من حيث لا يشعر ، فقد كان متفوقا في دراسته الثانوية حيث حصل على نسبة ٩٧% وهي نسبة تدل على ذكائه العالي ، ومن أجل ذلك درس الطب وهي مهنة الأذكياء على مر الدهور ، أما مجال إبداعه فقد كان مع مشواره الطويل مع القلم ، فقد عرف في المنتديات الجهادية كواحد من أفضل الكتاب على الإطلاق ، وكان يمكن أن تتعرف على كلماته الحالمة بسهولة من خلال أسلوبه المتميز الخلاب ، والذي ينم عن ثقافة واسعة وأدب نادر ، وهو الأمر الذي جعله في مصاف كبار المحرضين والمدافعين عن الحركة الجهادية ورموزها ، وهو

نفس الأمر الذي دعاه لأن يحيط نفسه بسلسلة من الإجراءات الأمنية بعد أن أصبح من الذين تتردد أسمائهم الحركية في أجهزة الأمن ، وقد كانت السرية التي يتحرك من خلالها د.همام ناجحة وذات مصداقية كبيرة عند كل من يتعامل معهم أو من يحيطون به ، فزملائه في العمل لم يلاحظوا عليه أي انحراف فكري – كما يقولون – بل يصفونه بأنه معتدل ! وأجهزة الأمن لم يكن لديها أي ملحوظات أمنية في ملف الدكتور سواء في الأردن أو تركيا التي قضى فيها فترة من الزمن ، وهذا يدل على مهارة عالية في التمويه والتغطية واستخدام الأساليب الأمنية الجيدة في اتصالاته الشخصية التي كان يشارك من خلالها في إدارة أكبر شبكة جهادية على الإنترنت – شبكة الحسبة – ، وهذا أمر يتطلب اتصال دائم بالمؤسسات الإعلامية للتنظيمات الجهادية ، وهنا تكمن الخطورة !

في مطلع ٢٠٠٩ استطاعت المخابرات الأردنية اكتشاف شخصية أبي دجانة الخراساني التي كان يتخفى بها د.همام وتم القبض عليه ، وأخضع على إثر ذلك للتحقيق ثم أفرج عنه بعد مدة من الزمن ، وسواء كان ذلك بسبب خطأ أمني من د.همام أو بتخطيط منه كما أرجح (لأنه كان قد أنشأ في تلك الأيام مدونة إلكترونية خاصة به وكان من السهل التعرف على صاحبها) ، فقد كانت هذه الفترة – أي فترة الاعتقال – مرحلة مناسبة لبناء خطة استخباراتية مستقبلية كانت تعتمد على إرسال بعض الإشارات وترك بعض الإنطباعات لدى ضباط الإستخبارات الأردنيين أثناء التحقيق معه ليكونوا فكرة معينة عن شخصية د.همام وقدراته وإمكاناته ، فكرة تجعل خيالهم يبحث عن طريقة لتجنيد هذه الإمكانيات لتحقيق اختراق نوعي في تنظيم القاعدة ، ومن الواضح أن شهية المخابرات الأردنية قد فتحت على مصراعيها بعد أن وجدت شخصية معروفة في الساحة الجهادية تتميز بالذكاء والفراسة والتخصص المهني المناسب للإحتكاك ببعض المطلوبين ، فكما هو معروف أن الطبيب مهنة تحتك بمعظم من حولها لأهميتها الوظيفية ، ومن خلال تجنيد د.همام وإرساله لباكستان أو أفغانستان تستطيع المخابرات الأردنية الوصول والتعرف على أكبر عدد من الشخصيات المطلوبة هناك ، خاصة أن د.همام يتمتع بمهارات فنية في الإتصالات ويتكلم عدة لغات وقد بدت هذه الصورة كأفضل مشروع يمكن أن تقدمه المخابرات الأردنية لوكالة الإستخبارات الأمريكية في الحرب على الإرهاب .

وبتوفيق الله عز وجل استجابت الإستخبارات الأردنية للإنطباعات والمؤشرات التي أوحى بها د.همام ، فقد اقتنع ضباط المخابرات الأردنية بأن د.همام يمكن أن يتعاون معهم في نقاط محددة ذات [توافق مشترك] ، وهي لمحة ذكية من د.همام لأن المخابرات تعلم بأنه مولع بالجهاد ومن المنظرين له وليس من السهل أن يبيع كل شيء من أول مرة ، وأرجح بأن د.همام لعب على وتر إنقاذ الحركة الجهادية وتنظيم القاعدة على وجه الخصوص من سيطرة الكوادر والأفكار المصرية لأن الإشاعات الكثيرة حول هذا الموضوع تجعل منه مدخلا جيدا لإقناع المخابرات الأردنية بأن تعاون د.همام معها يأتي من باب حفظ الحركة الجهادية من المؤثرات السلبية عليها وليس من باب الخيانة والغدر ، وكل هذه العملية الإيحائية والحوارات التي تخللتها – ود.همام خبير في هذه النوعية من المناقشات – أتت فقط لتطمئن المخابرات الأردنية بأن د.همام سيتعاون معهم بدافع من القناعة الشخصية في المرتبة الأولى ، لأن التجارب الإستخباراتية أثبتت بأن العملاء الذين يعملون بقناعة شخصية ضد بلدانهم كأن يكونون معارضين سياسيين مثلا هم أكثر ثقة وجدوى من العملاء الذين يعملون بدافع مالي أو إغراء جنسي أو أي شيء آخر .

وبعد أن نجح د.همام في إيهام المخابرات الأردنية بأنهم نجحوا في تجنيده لصالحهم قرروا إرساله لساحة العمل – باكستان – تحت غطاء طبيعي وهو إكمال دراسته في مجال الطب ، ومن هناك يبدأ العميل المفترض د.همام بالإتصال بمسؤولي التنسيق في تنظيم القاعدة – وهو معروف لديهم – لإتمام إجراءات الإنضمام إليهم بشكل اعتيادي كأي مجاهد يأتي لباكستان ثم يتم إدخاله أفغانستان أو منطقة القبائل – وزيرستان – والتي ينشط فيها التنظيم ، وعند هذه النقطة طلب د.همام مقابلة شخصية مع أحد كبار المسؤولين في التنظيم وقد يكون هذا المسؤول هو قائد العمليات العسكرية في تنظيم القاعدة الدولي وهي شخصية غامضة تعرف في دوائر الإستخبارات باسم " الدبوس " ولا يعرف عن هذه الشخصية سوى هذا الاسم ، فلا أوصاف ولا بصمة صوت ولا تاريخ ولا أي شيء آخر !

وبعد أن تم اللقاء بشكل مفاجئ – كما يتبع عادة في هذه اللقاءات – كشف د.همام عن شخصيته المفترضة كعميل للإستخبارات الأردنية وبدأ يشرح خطوات تجنيده وتفاصيل خداعه

للمخابرات الأردنية ، وبعد التأكد من حقيقة الوضع أمر المسؤول على الفور بتشكيل فريق عمل استخباراتي للبحث عن أفضل كيفية للإستفادة من مركز د.همام كعميل وجاسوس للإستخبارات الأردنية ،وبدأت حينها معالم خطة ذكية لإستدراج المخابرات المركزية الأمريكية لفخ أفغانستان المميت كما استدرج الجيش الأمريكي من قبل ! وبعد دراسة مستفيضة لما يمكن أن يقدمه د.همام من معلومات مهمة – لا تضر المجاهدين بشكل مباشر – للإستخبارات الأردنية لكسب ثقتها تجاه عميلها المفترض ولكي تسارع في نفس الوقت بعرض مشروعها الإستخباراتي الناجح على السي آي إيه لاستثماره بالشكل المناسب ، فالمخابرات الأردنية تعلم أن إمكانياتها وقدراتها وسلطاتها لا تسمح لها بتجاوز السي آي إيه بأي حال من الأحوال وأن دورها يقتصر على التجنيد والمتابعة المستمرة عبر ضباط الإرتباط ، قدم بعد ذلك فريق العمل الخاص بالقاعدة رزمة من المعلومات المنتقاة للعميل المفترض د.همام وأعطي الضوء الأخضر في إرسالها لضابط الإرتباط من جهة المخابرات الأردنية والذي كان يشرف على مشروع العميل السري د.همام والتقطت المخابرات الأردنية الطعم للمرة الثانية بعد أن هرولت بهذه المعلومات المهمة لمسؤولي السي آي إيه فتحول ملف العميل السري د.همام خليل البلوي ليصبح على مكاتب ضباط وكالة الإستخبارات الأمريكية التي تأكدت بدورها من صدق المعلومات الواردة في تقارير د.همام من مصادرها الأخرى .

بدأ التعامل مع د.همام يأخذ جانبا كبيرا من الأهمية لدى كبار ضباط الوكالة إلى أن وصل لمرتبة [عميل مهم جدا] وهي المرتبة التي تصنف المعلومات الواردة منها على أنها ذات أهمية بالغة ومصداقية كبيرة وبخاصة بعد أن أرسل د.همام صورا حديثة لشخصيات مهمة يعتقد بعد ظهور بعض التسريبات أن د.أيمن الظواهري كان من بين من التقطت لهم تلك الصور !

وبعد أن تكررت لقاءات العميل المفترض د.همام مع أحد ضباط السي آي إيه واستطاع أن يكون فكرة واقعية عن طبيعة عمل الوكالة في أفغانستان وباكستان وأوراقها الرابحة في ذلك قرر فريق العمل الإستخباراتي الخاص بالقاعدة تحديد هدف استراتيجي للإستفادة من المركز المتقدم الذي حققه د.همام البلوي في عمق وكالة الإستخبارات المركزية بعد أن تم تمرير بعض المعلومات عن طريق

د.همام بنجاح !! وبعد عدة اجتماعات مغلقة لفريق العمل اتفق الجميع على أن مركز قوة السي آي إيه في أفغانستان وباكستان يكمن في العقول التي تدير العمل الإستخباراتي برمته أي أن قوة الوكالة ليست في شبكة عملائها ولا أجهزة الرصد أو الأقمار الصناعية الخاصة بها إنما في العقول التي تراكمت فيها الخبرات والتجارب والتي من خلالها يتم إدارة كل هذا العمل وبدونها تتعطل القيمة الحقيقية لاستثمار المعلومات الإستخباراتية المستقاة عبر تلك الأجهزة وتلك الشبكات ! وبناء على ذلك درس فريق العمل إمكانية تحديد لائحة بأسماء أهم ضباط السي آي إيه الذين يتحكمون في ملف الحرب على الإرهاب في منطقة العمليات الكبرى – أفغانستان وباكستان – وبسبب صعوبة الحصول على مثل هذه الأسماء للسرية الكبيرة التي تحيط بها قام فريق العمل بفبركة معلومات أولية عن أحد المواقع التي يختبأ فيها الرجل الثاني في تنظيم القاعدة د.أيمن الظواهري وطبيعة هذه المعلومات تتطلب مناقشة وتنسيق وتوجيه من رجال الصف الأول في وكالة الإستخبارات المركزية أي أن الأمر يتعلق بتخصصات معينة وخبرات عميقة للإستفادة من تقرير د.همام حول عملية اغتيال الظواهري ولحساسية الموضوع وخطورته وأهميته انتظر فريق العمل الإستخباراتي الخاص بالقاعدة التوقيت المناسب للبدء في تنفيذ الخطة لأنهم قدروا أن عملية استدراج مثل هذه العقول تحتاج لظروف نفسية معينة وجو من الضغوط السياسية والإدارية تجعل من الصعب التروي في دراسة طبيعة أي ظرف طارئ كالذي ينوي د.همام تقديمه إليهم ، وجاء التوقيت المناسب في يوم ٢٥ /١٢ /٢٠٠٩ بعد محاولة النيجيري عمر الفاروق تفجير طائرة الدلتا الأمريكية قبيل هبوطها في مطار ديترويت ، فقد جاءت هذه المحاولة كالصاعقة على جميع الأجهزة الأمنية في أمريكا بعد أن نجح تنظيم القاعدة في جزيرة العرب في تنسيق اختراق نوعي اجتاز خلاله عمر الفاروق أجهزة الرصد والتفتيش في عدة مطارات قبل أن يصل إلى أمريكا ومع أن المحاولة فشلت في تفجير الطائرة إلا أنها أحدثت رعبا عالميا في حركة الطيران وخاصة في أمريكا وأوربا ، ووضعت الكثير من القيود على حركة المسافرين وتم تركيب أجهزة الكشف عن أجساد المسافرين مما أثار سخط جمعيات الحريات العامة والأهم من ذلك أن الرئيس الأمريكي أوباما عقد اجتماعا عاجلا مع مديري وكالات الإستخبارات الأمريكية – عددها ستة عشر وكالة – وخرج بتصريح مفاده أن عملية محاولة التفجير كان يمكن تفاديها لولا بعض القصور في تبادل المعلومات بين

الوكالات الأمريكية ، واعتبر هذا التصريح بمثابة توبيخ رسمي لجميع وكالات الإستخبارات الأمريكية وعلى رأسها السي آي إيه ، وهنا ارتأى فريق العمل القاعدي أنه الجو المناسب لإنقاذ هيبة السي آي إيه وإعادة اعتبارها أمام الرئيس فأعطوا للدكتور همام الضوء الأخضر للاتصال بضابط الإرتباط الأردني وطلب اجتماع عاجل بخصوص معلومات مهمة عن مكان اختفاء الرجل الثاني والذي كان يرمز له برمز معين ! وقد تضمن الطلب أن يكون الاجتماع عاجلا وسريعا ومع أصحاب القرار في الوكالة لأنهم وحدهم من سيوجهون الأسئلة المهمة والتي ستحدد الإجابة عنها معالم وطريقة وتوقيت عملية اغتيال د.أيمن الظواهري .

الحقيقة أن فريق العمل الإستخباراتي الذي عمل مع د.همام لم يعط للأمريكان أي فرصة للتأخر عن الخطوات التي رسمت لهم من قبل الفريق فقد تمت الموافقة على عقد الاجتماع فورا وغادر من أجل ذلك ضباط الوكالة الأراضي الأمريكية متجهين نحو أفغانستان وفي أثناء اجراءات التحضير لعقد الاجتماع كان خبراء المتفجرات التابعين لتنظيم القاعدة قد انتهوا من عمل الحزام الناسف الذي سيكون بداخل الجاكيت الذي سيرتديه د.همام والذي صمم ليحدث إصابات قاتلة في محيط كبير كالقاعة الكبيرة التي سيعقد فيها الاجتماع ، وبهذا يكون دور فريق العمل قد انتهى ويبقى الأمر معلق بعد الله سبحانه وتعالى بحسن تصرف د.همام وعدم إعطائه أي إشارات ريبة أو توتر لضابط الإستخبارات الأمريكي الذي أرسل خصيصا لمرافقته في السيارة أثناء دخول القاعدة فهؤلاء الضباط يستطيعون قراءة أي ملامح على الوجه ومعرفة ما ورائها ولكن رباطة جأش د.همام وقدرته على ضبط حركاته لم تدع مجالا للشكوك أن تحوم حوله ، وقد يخرج تساؤل هنا حول السبب الذي حال دون قيام ضابط الإستخبارات الأمريكي بتفتيش د.همام قبل اصطحابه بالسيارة أو عند بوابة القاعدة على الأقل والجواب على ذلك يكمن في الثقة الكبيرة التي كونها د.همام مع ضباط الوكالة والتي جعلت فريق العمل القاعدي يوقن بأنهم لن يفكروا بطلب تفتيشه ولذلك وضعت العبوة الناسفة بذلك الحجم ولم تكن مخفية أو بطريقة يصعب الكشف عنها كالتي استخدمها التنظيم في عملية ديترويت عندما نسجت المادة المتفجرة على شكل ملابس داخلية للأخ عمر الفاروق والتي لم تتمكن أجهزة التفتيش في المطارات من الكشف عنها بتاتا ، وقد

صدق ظن فريق العمل فقد علق أحد خبراء السي آي إيه على سبب عدم تفتيش د.همام قبل دخوله القاعدة بقوله : لقد استحوذ على ثقتهم !!

لقد وضع فريق العمل تصوراته لكل ما يمكن أن يحدث عند ساعة الصفر ولذلك حمل د.همام معه ورقة بيضاء صغيرة عليها مخطط جغرافي يفترض أنه مخطط للموقع الذي سيتواجد أو يختبأ فيه د.أيمن الظواهري وهذه الورقة هي التي ستجعل كبار الضباط وحدهم دون غيرهم من يقتربون أكثر من د.همام ليطلعوا على المخطط لأن صغار الضباط لن يتقدموا على مرؤوسيهم في ذلك ! وبتوفيق الله وعونه ورعايته ومكره ومدده جرى ما خطط له فريق العمل الإستخباراتي بالضبط وفي الساعة ٦.٣٠ من مساء يوم الأربعاء ٣٠ / ١٢/ ٢٠٠٩ دخل د.همام خليل البلوي برفقة الضابط الأمريكي إلى قاعدة شابمان للعمليات الأمامية في خوست وكان كل شيء جاهز في انتظاره ولم يضيع أي وقت للترحيب أو الأحاديث الجانبية حتى لا يحدث ما يعكر صفو الاجتماع فبمجرد دخوله للقاعة الكبيرة في القاعدة وجد أمامه ضابط الإرتباط الأردني وكبار ضباط السي آي إيه وكانت القاعة كما ذكرت التقارير الأمريكية تعج بعملاء وكالة الإستخبارات المركزية وعند هذه اللحظة اقترب د.همام من الجمع المهم من الحضور وأخرج الورقة البيضاء وأخذ يشير إلى شيء ما فاقتربوا منه أكثر وعند هذه اللحظة الحاسمة ضغط د.همام على مفتاح تفجير الحزام الناسف ودوى انفجار ضخم سقط على إثره العديد من عملاء السي آي إيه منهم سبعة من كبار ضباط الوكالة وأصدر تنظيم القاعدة – القيادة العامة – بيان بعنوان [غزوة أبي دجانة الخراساني لإختراق حصون الأمريكان] وبقي الذهول مسيطرا على الإدارة الأمريكية من هول المصيبة وكتب الرئيس الأمريكي أوباما رسالة تعزية للسي آي إيه في محاولة للتخفيف من مصابهم فالعملية كما أجمع المحللون وخبراء الإستخبارات كانت ناجحة بكل المقاييس وأن المخططين للعملية كانوا يهدفون إلى استدراج عقول السي آي إيه إلى فخ مميت وقد نجحوا في ذلك ، قال الرئيس السابق لوحدة ملاحقة أسامة بن لادن في الوكالة مايكل شوير : إن من بين قتلى هذا الهجوم أهم خمسة خبراء أمريكيين في شؤون القاعدة وعندما نفقد ذلك النوع من الخبرات سيصعب علينا إيجاد البديل بل يستحيل في القريب العاجل ! .

وذكرت صحيفة النيويورك تايمز عن مسؤول كبير في حلف شمال الأطلسي : أن هجوم خوست تسبب في الإغلاق الفعلي لتلك المحطة المتقدمة التي كان عملاء السي آي إيه يستخدمونها في أفغانستان . . . وأضاف : أن الأشخاص الذين قتلوا في الهجوم لم يكونوا من الذين يضطرون لكتابة الأشياء في الحاسوب ولا في الأوراق لأن كل المعلومات كانت جاهزة في أدمغتهم . . وأضاف : إن أكثر ما فقد بسبب موت هؤلاء لن تكون هناك إمكانية لاسترداده !!

الحقيقة أن تنظيم القاعدة أبقى تفاصيل العملية والأساليب التي استخدمت فيها محل سرية تامة ولم يسمح بأي تسريبات من طرفه لأنها تعتبر موروث استخباراتي خاص به ، وما تطرقت إليه هنا لم يحتوي على تفصيلات جديدة بل هي محاولة للقراءة فيما بين السطور لما حدث . . وكيف حدث ؟ تبعا للإجراءات والأساليب المتبعة في العمل الإستخباراتي والتي دل عليها خط سير العملية ، أما المحللون الغربيون فمع أنهم لم يخفوا إعجابهم بالعملية إلا أنهم وقفوا حائرين في محاولة فهم وتحليل خطواتها كما صرحت به صحيفة النيويورك تايمز آنذاك بقولها : إن البلوي أخفى آثاره ونواياه وراء أكثر من قصة مما يجعل سرد قصة حياته بطريقة واضحة أمرا صعبا !.

والحقيقة أن خطورة العملية لم تكن في آثارها المدمرة على بنية ومعنويات وسمعة السي آي إيه التي أصدرت بيان تتوعد فيه بالثأر لعملائها الذين قضو في العملية في سابقة لم تعهد من قبل في وكالة ذات طابع رسمي ! وإنما الخطورة تكمن في أن هناك عقول دبرت وخططت لهذه العملية بكل دقة وبراعة وذكاء وهي من كانت توجه العميل السري د.همام منذ البداية ! وأن هذه العقول مازالت حرة طليقة !!

[٧] العمل الإستخباري المرحلي

يعتبر العمل المرحلي الذي يراعي الواقع والقدرات هو الأكثر قابلية للبقاء والأقرب للنجاح ، وعندما نقول العمل المرحلي فإننا نقصد به التدرج في الوصول للهدف عبر عدة خطوات تحدد خطة زمنية قابلة للزيادة أو النقص حسب القرب أو البعد من تحقيق الهدف وهذا ما يعرف ب[مرونة الخطة] .وقد كانت خطة الدعوة التي اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم في نشر الإسلام خطة مرحلية راعت ضغط الواقع وقدرات الناس واختلاف درجاتهم . فتدرجت الدعوة من المرحلة السرية في الثلاث سنين الأولى واتخذت من دار أبي الأرقم مقرا سريا لها ، ثم انتقلت إلى المرحلة العلنية مع الكف عن القتال والصبر على الأذى ، واستمرت على ذلك عشر سنين ، وبعد أن نجح النبي صلى الله عليه وسلم في تكوين إمارة إسلامية في المدينة هاجر إليها وأنزل الله تعالى الإذن بالقتال فبدأت بعد ذلك المرحلة العالمية والتي توجهت فيها الدعوة نحو الإمبراطوريات العظمى في العالم ، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا .

وقل نفس الكلام عن المرحلية في إنزال التكاليف الشرعية ، والتي اقتصرت في مكة على تقرير التوحيد في قلوب المسلمين وما يعين على ذلك من صلاة ودعاء ، ثم نزلت في المدينة بقية التكاليف والأحكام الشرعية بعد أن قطع المسلمون شوطا إيمانيا مهما لتقبلها كما في تحريم الخمر الذي تدرج القرآن بتحريمه فبدأ بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ ثم بقوله تعالى ﴿ يسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ وانتهى بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فراعى هذا التدرج ما ألفه الناس ونشأوا عليه وسار بهم جنبا إلى جنب مع رصيدهم الإيماني المتنامي حتى أصبحوا في وضع يسمح لهم بتلقي مثل هذه الأحكام الجديدة عليهم .

وهكذا مع كل جديد يطرق أبواب الناس وأفهامهم فلا يمكن أن يتجاوبوا معه إلا بعد أن يدخل

من الباب المناسب وفي الوقت المناسب ! ونحن عندما نريد أن نعتمد على العمل الإستخباري في تغيير واقع معين ليخدم أهدافنا في المستقبل فإننا نريد بذلك العمل الإستخباري المرحلي الذي يراعي التدرج في خطواته لتغيير الواقع المطلوب تغييره لصالحنا ! وحتى نفك الإشتباك الذي قد يحصل عند البعض أقول : أن هناك مسارا جهاديا عالميا يسير بثبات نحو هدف استراتيجي مهم – تحرير الأقصى– وقد يحتاج إلى مسافة زمنية كبيرة لتحقيق ذلك ، فعندما يصل هذا المسار إلى مرحلة الإنطلاق باتجاه الهدف يجب أن يكون هناك " واقع معين " يساعد على نجاح هذه الإنطلاقة ، وهذا الواقع قد يأخذ شكلا اجتماعيا أو سياسيا أو عسكريا أو دينيا ، وقد يكون في مسرح العمليات أو خارجه بحسب ما يخدم متطلبات نجاح الإنطلاقة ! وبما أن كل خريطة تختلف عن الأخرى من الناحية الجغرافية الطبيعية فهي تختلف أيضا من حيث الجغرافيا السكانية التي تتميز فيها كل خريطة بعادات ومؤثرات تاريخية معينة ، ومفتاح العمل في هذه الخرائط هو الفهم الصحيح لطبيعة هذه العادات والمؤثرات . ومن ثم يمكن أن نرسم خط السير الذي سيوصلنا إلى الهدف في أقرب وقت وأسهل طريق . وقد أدرك الغرب هذه الحقيقة بعد فشل جميع الحملات الصليبية التي قاموا بها ضد المسلمين عبر التاريخ وعلموا أن العمل العسكري البحت لا طائل منه ولا جدوى من الإستمرار فيه دون معرفة السر الذي يحول دون القضاء على المسلمين وهو الشعار الذي طالما رفعه البابوات في روما ، فاتجهوا نتيجة لذلك الفشل الذريع إلى دراسة الدين الإسلامي دراسة مستفيضة ودراسة واقع المسلمين وتاريخهم ومذاهبهم وأهم المشاكل بينهم وغيرها من الأمور التي اعتنى بها " المستشرقين " الذين لم يكونوا سوى حركة تصحيحية لمسار الحملات الصليبية على المسلمين ، جاء في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة عن حركة المستشرقين ما يلي :

أهداف الاستشراق:

الهدف الديني : كان هذا الهدف وراء نشأة الاستشراق، وقد صاحبه خلال مراحله الطويلة وهو يتمثل في :

١ – التشكيك في صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، والزعم بأن الحديث النبوي إنما هو من

عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى. والهدف الخبيث من وراء ذلك هو محاربة السُّنة بهدف إسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لأحكام الإسلام ولحياة الرسول صلى الله عليه

وسلم ، وبذلك يفقد الإسلام أكبر عناصر قوته.

٢ – التشكيك في صحة القرآن والطعن فيه، حتى ينصرف المسلمون عن الالتقاء على هدف واحد يجمعهم ويكون مصدر قوتهم وتنأى بهم اللهجات القومية عن الوحي باعتباره المصدر الأساسي لهذا الدين (تنزيل من حكيم حميد).

٣ – التقليل من قيمة الفقه الإسلامي واعتباره مستمداً من الفقه الروماني.

٤ – النيل من اللغة العربية واستبعاد قدرتها على مسايرة ركب التطور وتكريس دراسة اللهجات لتحل محل العربية الفصحى.

٥ – إرجاع الإسلام إلى مصادر يهودية ونصرانية بدلاً من إرجاع التشابه بين الإسلام وهاتين الديانتين إلى وحدة المصدر.

٦ – العمل على تنصير المسلمين.

٧ – الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والأخبار الموضوعة في سبيل تدعيم آرائهم وبناء نظرياتهم.

٨ – لقد كان الهدف الاستراتيجي الديني من حملة التشويه ضد الإسلام هو حماية أوروبا من قبول الإسلام بعد أن عجزت عن القضاء عليه من خلال الحرب الصليبية.

– الهدف التجاري : لقد كانت المؤسسات والشركات الكبرى، والملوك كذلك، يدفعون المال الوفير للباحثين، من أجل معرفة البلاد الإسلامية وكتابة تقارير عنها، وقد كان ذلك جليًّا في عصر ما قبل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

– الهدف السياسي يهدف إلى:

١– إضعاف روح الإخاء بين المسلمين والعمل على فرقتهم لإحكام السيطرة عليهم.

٢– العناية باللهجات العامية ودراسة العادات السائدة لتمزيق وحدة المجتمعات المسلمة.

٣– كانوا يوجهون موظفيهم في هذه المستعمرات إلى تعلم لغات تلك البلاد ودراسة آدابها ودينها ليعرفوا كيف يسوسونها ويحكمونها.

٤- في كثير من الأحيان كان المستشرقون ملحقين بأجهزة الاستخبارات لسبر غور حالة المسلمين وتقديم النصائح لما ينبغي أن يفعلوه لمقاومة حركات البعث الإسلامي.

الهدف العلمي الخالص :

- بعضهم اتجه إلى البحث

والتمحيص لمعرفة الحقيقة خالصة، وقد وصل بعض هؤلاء إلى الإسلام ودخل فيه . . لقد بلغ ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف قرن)منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين(ستين ألف كتاب.

- المؤتمرات والجمعيات:

- عقد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في باريس سنة ١٨٧٣م.

- تتابعت المؤتمرات بعد ذلك حتى بلغت أكثر من ثلاثين مؤتمراً دوليًّا، فضلاً عن الندوات واللقاءات الإقليمية الكثيرة الخاصة بكل دولة من الدول كمؤتمر المستشرقين الألمان الذي عقد في مدينة درسدن بألمانيا عام ١٨٤٩م، وما تزال تنعقد مثل هذه المؤتمرات باستمرار حتى الآن.

- يحضر هذه المؤتمرات مئات من العلماء المستشرقين، حيث حضر مؤتمر أكسفورد تسعمائة ٩٠٠ عالم من خمس وعشرين دولة وثمانين جامعة وتسع وستين جمعية علمية.

- هناك العديد من الجمعيات الاستشراقية كالجمعية الآسيوية في باريس تأسست عام ١٨٢٢م، والجمعية الملكية الآسيوية في بريطانيا وأيرلندا عام ١٨٢٣م، والجمعية الشرقية الأمريكية عام ١٨٤٢م والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥م.

- الاستشراق في خدمة الاستعمار:

كارل هنيريش بيكر BeekerKar Heinric h ت ١٩٣٣م مؤسس مجلة الإسلام الألمانية، قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية في أفريقيا.

- بارتولد Barthold ت ١٩٣٠م مؤسس مجلة عالم الإسلام الروسية، قام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى.

– الهولندي سنوك هرجرونجه .Snouck Hurgonje, G ١٨٥٧-١٩٣٦م قدم إلى مكة عام ١٨٨٤م تحت اسم عبد الغفار، ومكث مدة نصف عام، وعاد ليكتب تقارير تخدم الاستعمار في المشرق الإسلامي. وقد سبق له أن أقام في جاوة مدة ١٧ سنة وقد صدرت الصور التي أخذها لمكة والأماكن المقدسة في كتاب بمناسبة مرور مائة سنة على تصويرها.
معهد اللغات الشرقية بباريس المؤسس عام ١٨٨٥م كانت مهمته الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية وبلدان الشرق الأقصى مما يشكل أرضية تسهل عملية الاستعمار في تلك المناطق.

– وهكذا نرى أن مثل هؤلاء المستشرقين جزء من مخطط كبير هو المخطط الصهيوني الصليبي لمحاربة الإسلام، ولا نستطيع أن نفهمهم على حقيقتهم إلا عندما نراهم في إطار ذلك المخطط الذي يهدف إلى تخريج أجيال لا تعرف الإسلام أو لا تعرف من الإسلام إلا الشبهات، وقد تم انتقاء أفراد من هذه الأجيال لتتبوأ أعلى المناصب ومراكز القيادة والتوجيه لتستمر في خدمة الاستعمار.
انتهى .

ومن ذلك يتضح أن مرحلة الإستشراق كانت عبارة عن عملية بحث عن " مفتاح عمل " في خريطة العالم الإسلامي ، وهي الخطوة الأولى والأهم في العمل الإستخباري المرحلي . وبعد أن تتم عملية التشخيص هذه بنجاح يمكن لنا بعد ذلك وليس قبله أن نشرع في وضع الخطط وصناعة الهياكل التنظيمية القابلة للحياة والنمو والتي سنعمل من خلالها في تلك المجتمعات مع مراعاة سرية التوجيه في ذلك . وقد بحثت في التاريخ الإسلامي فوجدت مثالين للعمل الإستخباري المرحلي الذي نجح في إيجاد مفتاح عمل صحيح ونجح في صناعة هياكل تنظيمية قابلة للحياة والنمو ، وكان ذلك في قالب من سرية التوجيه . وقد أدى العمل الإستخباري الأول إلى بناء دولة ، بينما أدى الآخر إلى هدم دولة أخرى !

المثال الأول : عملية قيام الدولة العباسية :
قال المؤرخ محمود شاكر رحمه الله : " قامت الدولة العباسية نتيجة التخطيط والسرية " ، لقد

لخصت هذه الكلمات قصة نشأت الدولة العباسية العريقة التي امتدت إلى أكثر من ٥٠٠ عام وقامت على العمل الإستخباري البحت ، فقد كانت البداية العملية مع بداية القرن الثاني الهجري على محمد بن علي بن عبدالله بن عباس الذي رأى أن العمل في ظل خطة سرية وطويلة المدى وذات خطوات محدودة يمكن أن يثمر عن قيام الدولة يوما ما ! وقد صدق ظنه وقامت الدولة بالفعل عام ١٣٢ للهجرة ، أي بعد خطته هذه بثلاثين عاما على يد ابنه عبدالله بن محمد المعروف ب"السفاح" . ولنترك المؤرخ الإسلامي الكبير محمود شاكر يحكي لنا جوانب هذه الخطة وعوامل النجاح فيها ، جاء في التاريخ الإسلامي عن العهد العباسي صفحة ٤١ :

"نظر محمد بن علي ليعين المكان الذي يجعله قاعدة انطلاق لدعوته ، وقد رأى أن تكون بعيدة عن (الحميمة) لتبتعد الأنظار عنه ، ويبقى الإمام المرشح مجهولا كي يضمن جمع أعداد من المعارضين لبني أمية ، إذ لو سمي الإمام لابتعدت عنه مجموعات ، ولاقتصرت دعوته على فئة واحدة ، لأن كل جماعات ترى رجلا معينا من بني هاشم ، وعلى هذا فقد جعل دعوته هاشمية وإلى الرضا من آل محمد ، فهي تشمل بذلك أبناء علي ، كما تشمل أبناء العباس ، وتضم أبناء جعفر ، وأبناء عقيل ، وأبناء علي .

ووقع اختياره على مدينة الكوفة إذ أنها قاعدة الناقمين على بني أمية حيث فيها كثير من أنصار أبناء علي أولا ، ثم إن هذه المدينة قد قتل من أبنائها الكثير مع مسلم بن عقيل ، ومع المختار الثقفي ، ومع مصعب بن الزبير ، ومع عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ، ومع الخوارج و. . . . . وقد نقم أهل هؤلاء القتلى جميعا على بني أمية ، وعندهم الإستعداد للثورة في كل آن تسمح لهم الفرصة فيه ، أو تخف وطأة الحكم الأموي عنهم . ورأى أن خراسان تقع في مشرق الدولة ، وإذا دعت الظروف يمكن أن يفر من يريد إلى بلاد الترك المجاورة ، كما فعل من قبل ابن الأشعث وغيره .

وفي خراسان يشتد الصراع بين العرب ، بين القيسية واليمانية ، فيمكن الإفادة من هذا الصراع وجلب الجماعات الناقمة على هذا النزاع ، والتي تريد أن تقضي عليه ، وتتخلص منه ، والجماعات التي يؤلمها هذا الصراع الجاهلي الذي يحاربه الإسلام ، فهو عصبية فتنة . انتهى كلامه . وأضاف : ولم يكن الناس قد اتجهوا إلى الزراعة بعد بشكل جيد ، أو عادوا إليها بعد الإنصراف

إلى الفتوحات وأعمال الغزو ، وبالتالي فإن الدولة لم تكن بعد قد أولت الزراعة عنايتها لاتجاهها إلى الفتح وإلى قمع الحركات التي تحدث بين الحين والآخر ، وهذا ما جعل الحياة المادية في الريف دونها في المدن فاتجهت أعداد من الشباب نحو الحواضر ليجدوا حياة أفضل ، وأولئك يمكن الإفادة منهم في كل حركة ، وهم أول ما اتجهت إليهم أنظار محمد بن علي العباسي . ولم تتوجه إلى العرب الذين استحكمت بينهم العصبية إذ يمكن نتيجتها أن تعرف أسرار الدعوة ، ويظهر ما يجب إخفاؤه ، ثم إن ترف أكثر العرب هناك يجعلهم لا يفكرون بتنظيمات سرية ، وليس لهم طموحات سياسية ، وفي الوقت نفسه لا يبحثون عن تغيير لأوضاع اجتماعية قائمة أو لتحسين أحوال مادية هم في غنى عنها ، إذن لم يكن انصراف محمد بن علي العباسي عن العرب كراهية لهم ، كما يزعم المؤرخون المحدثون ، ولا حبا بالموالي أو الفرس ، أو الترك ، وإنما انصرف إلى الذين يمكن أن يؤمن لدعوته النجاح بواسطتهم ، فكان اتجاهه إلى الموالي ، على حين كان أغلب النقباء من العرب . فالعرب قادة الدعوة ، والشباب من الموالي من جنودها ووقودها . ورأى أن تكون الكوفة مركز الدعوة ، ويقيم فيها كبير الدعاة ، أو كما أسماه داعي الدعاة ، وأن خراسان يمكن أن تكون مجال انتشار الدعوة –كما ذكرنا – وهذا ما يضمن لنفسه زيادة في السرية ولدعاته كذلك ، فأخبار خراسان تأتي إلى الكوفة ، ومن الكوفة تنتقل إلى الحميمة ، ويكون القدوم لمن يريد من الدعاة على شكل تجار أو حجاج ، وترسل الأوامر والتعليمات عن طريق الكوفة أيضا .

وبعد اتصالات قام بها محمد بن علي العباسي أرسل في عام مائة ميسرة العبدي إلى الكوفة ليكون داعي الدعاة فيها ، وأرسل إلى خراسان أبا عكرمة السراج (أبو محمد الصادق) ، ومحمد بن خنيس ، وحيان العطار ، وأمرهم بالعمل والبدء بالدعوة ، فنالوا بعض النجاح ، فأرسل دعاة خراسان بكتب من استجاب لهم إلى ميسرة العبدي بالكوفة ، وقام هو بدوره فأرسلها إلى الحميمة .

واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي العباسي اثني عشر نقيبا ، وهم : سليمان بن كثير الخزاعي ، ولاهز بن قريظ التميمي ، وقحطبة بن شبيب الطائي ، وموسى بن كعب التميمي ، وخالد بن إبراهيم أبو داود من بني عمرو بن شيبان بن ذهل ، والقاسم بن مجاشع التميمي ، وعمران بن إسماعيل أبو النجم – مولى لآل أبي معيط – ، ومالك بن الهيثم الخزاعي ، وطارق بن زريق الخزاعي

، وعمرو بن أعين أبو حمزة – مولى لخزاعة – ، وشبل بن طهمان الهروي – مولى لبني حنيفة – ، وعيسى بن أعين – مولى لخزاعة – وأيضا – واختار سبعين رجلا أيضا . بحيث يكون لكل داعية اثنا عشر نقيبا يأتمرون بأمره ، ولا يعرفون الإمام ، ولكل نقيب سبعون عاملا . وكتب إليهم محمد بن علي كتابا يكون مثالا وسيرة يقتدون بها ، ويسيرون عليها . انتهى كلامه .

وانطلقت الدعوة العباسية بهدوء وسرية تامة واقتصرت على خراسان كما ذكرنا من قبل ، وبدأ الناس يقبلون عليها يوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ، ومرت بعدة أطوار من الإنحسار والتمدد تبعا للظروف السياسية"

قال المؤرخ محمود شاكر :

وفي ١٢٥ توفي محمد بن علي العباسي ، وأوصى من بعده لابنه إبراهيم ، وأمره أن يقوم بأمور الدعوة . وبعد هذا العام تغيرت الأحوال بالنسبة إلى الدعوة العباسية إذ :

١ – ضعف الحكم الأموي بعد وفاة هشام بن عبدالملك عام ١٢٥ هـ ، وانقسم البيت الأموي على نفسه ، وأصبح بعضهم يقاتل بعضا ، الأمر الذي كره فيه الناس هذا الخلاف ، وتمنوا الخلاص منه . هذا إضافة إلى الحركات التي قامت ضدهم .

٢ – زادت العصبية القبلية استحكاما وخاصة في خراسان ، وكان الوالي نصر بن سيار مضريا فتعصب لمضريته ، وأكثرية العرب هناك من اليمانية فكرهوه هذا بالإضافة إلى كراهية صاحب السلطة دائما بسبب المصالح المستجدة . واتجه أنصار الدعوة العباسية إلى اليمانية ، وهكذا جاءتهم التوجيهات أيضا من الإمام . وكره الناس هذا الخلاف ، وتمنوا الخلاص منه ، كره هذا اليمانيون عامة ، وكرهه المضريون أنصار الكرماني ، وكرهه أهل الدين لمخالفته للإسلام ، وكره ذلك الفرس كما كرهه الترك لأن ذلك يؤثر على بلادهم وعلى أحوالهم المعاشية دون أن يكون لهم أية علاقة ، أو دون أن يكون أحد منهم طرفا فيه .

٣ – إن هذه الصراعات قد أثرت على أوضاع المنطقة فتأخرت الزراعة ، ونال هذا الأمر الموالي بالدرجة الأولى ، إذ أنهم هم عمال الأرض ، والمنتجون الرئيسيون في المنطقة بل وفي الدعوة عامة ، وحرصت أعداد كبيرة منهم على الإنتقال إلى المدينة لتجد حياة أفضل فغصت المدن بالناس الذين

لا عمل لهم ، وكانوا أرضا طيبة لانتشار الأفكار المعادية للأوضاع القائمة ، وبالتالي أنصارا للدعوة العباسية بل ولكل تغيير يمكن أن يتم .

٤ – إن الإشاعات الكثيرة التي روجها خصوم بني أمية ضدهم قد لعبت دورها في كراهيتهم ، ومساندة أعدائهم ، والإنضمام إلى صفوف الحركات التي تقوم ضدهم أو تعمل لذلك .

٥ – إن الحركات التي قامت في هذا الوقت كان لها الأثر السيء على الأمويين ، فحركات الخوارج ، وحركة عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ، وغيرها مثل حركة الكرماني وحركة الحارث بن سريج ، كما لم تمض مدة طويلة على حركة زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ، وحركة ابنه يحيى .

٦ – إن الترف الذي وجد في خراسان قد قسم المجتمع إلى طبقات ، فحقدت الفقيرة على الغنية ، وشعر الناس بمخالفة هذا للإسلام ، وعدوا الدولة هي المسؤولة عن وجود مثل هذه الطبقات .

٧ – إن انقسام الإقليم بين نصر بن سيار وجديع بن علي الكرماني ، قد أضعف أمر الوالي ، وفي الوقت نفسه قوى أبو مسلم الذي ضم إليه أكثر أنصار الكرماني بعد قتله ، وكانت اليمانية الذين اعتمدت عليهم الدعوة إلى بني العباس قد التفوا حولها بشكل أقوى .

إن القوة التي حصلت عليها الدعوة في خراسان قد جعل من الضروري وجود شخص قوي يتصل بالحميمة مباشرة دون الرجوع إلى داعي الدعاة الذي مقره الكوفة ، وقد كان التفتيش عن هذا الشخص حتى وجد في شخصية أبي مسلم الخراساني . انتهى كلامه .

وأضاف : وفي عام ١٢٩ طلب الإمام إبراهيم من أبي مسلم أن يحضر إليه مع كبار أعوانه ، فسار إليه مع سبعين من النقباء . فلما كانوا ببعض الطريق جاءهم كتاب آخر من الإمام يقول فيه لأبي مسلم : " إني بعثت إليك براية النصر فارجع إلى خراسان وأظهر الدعوة "، وأمر قحطبة بن شبيب الطائي أن يسير بما معه من الأموال والتحف إلى إبراهيم الإمام فيوافيه في الموسم . انتهى كلامه .

وأضاف : وكثر أتباع أبي مسلم إذ كان يرسل الدعاة إلى الكور يدعو لبني العباس ، والناس في خلاف فبعث نصر إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يعلمه بأمر أبي مسلم ، وكثرة من معه ، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد ،وكتب في جملة كتابه :

أرى تحت الرماد وميض نار*فيوشك أن يكون لها ضرام

فإن النار بالعيدان تذكي*وإن الحرب مبدؤها كلام

فإن لم يطفها عقلاء قوم*يكون وقودها جثث وهام

أقول من التعجب ليت شعري*أأيقاظ أمية أم نيام؟

فإن يك أصبحوا، وثووا نياما*فقل قوموا، فقد حان القيام

فكتب إليه مروان : الشاهد يرى ما لا يراه الغائب . فقال نصر : إن صاحبكم قد أخبركم أن لا نصر عنده .انتهى كلامه .

ثم مات إبراهيم الإمام عام ١٣٢ للهجرة وآل الأمر إلى أخيه عبدالله السفاح الذي تكللت انتصاراته على الأمويين بمعركة " الزاب الكبير " التي أنهت الوجود الحقيقي لبني أمية ، وأصبح عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس خليفة المسلمين وأول خلفاء الدولة العباسية . وكما هو واضح من الأحداث أن مفتاح العمل كان الدعوة إلى إرجاع الخلافة الإسلامية إلى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وهي دعوة رائجة ولها من يتعاطف معها خصوصا مع ضجر الناس من تردي الأوضاع في أواخر حكم بني أمية ، أما التنظيم القابل للحياة والنمو فهو المخطط الذي اتبع في تبليغ الدعوة وتمويلها ، أما سرية التوجيه فتمثلت في بعد مقر الدعوة الحقيقية – الحميمة – وإخفاء اسم الإمام والإكتفاء بالدعوة إلى من يرضى به الناس من آل البيت فسمي " الرضا من آل محمد " .

المثال الثاني : عملية تفكيك الدولة العثمانية :

وقد تبنت الصهيونية العالمية هذه الفكرة بعد أن التقت مصالحها مع مصالح الغرب في إنهاء الكيان الوحيد الذي يجمع شمل المسلمين – الخلافة الإسلامية – ولم يجدوا أفضل من فكرة " القومية " كمفتاح عمل و " جمعية الإتحاد والترقي "كتنظيم قابل للحياة والنمو ،ويهود الدونمة للإشراف والتوجيه السري على هذه العملية الإستخبارية ، جاء في التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر في العهد

العثماني صفحة ١٩ : وأخذ عدد من الترك بالفكرة القومية وبدؤوا يبثونها سرا في أوساط المجتمع ولعل هؤلاء الأفراد كان معظمهم ممن لهم مصالح ، منها ما يعود إلى تحطيم الدولة العثمانية بالذات التي وقفت أمام مصالح اليهود في فلسطين أو أمام تطلعاتهم القائمة على إقامة دولة لهم في فلسطين ، وكان أكثر أفراد هذه المجموعة من الذين يعودون إلى أصل يهودي إذ أن الدولة العثمانية فتحت أبوابها لليهود الذين خرجوا من الأندلس نتيجة الإضطهادات النصرانية التي لحقتهم ، تخطيطا ومكرا ، ورغم احتضان الدولة العثمانية لهم فإنهم لم يحفظوا هذا الإحسان وإنما قابلوه بمنتهى الإساءة وأظهر عدد منهم الإسلام ، وبقوا في الواقع على دينهم الأصلي وهو اليهودية ، وهم الذين عرفوا باسم يهود الدونمة ويعودون في الأصل إلى أنهم أتباع ساباتاي زفي . . . وقد ولد ساباتاي في أزمير عام ١٠٣٥ ، وادعى أنه المسيح المنتظر ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، وزار مصر عام ١٠٧٣ ، واستفاد من دعم الصيرفي رافائيل جوزيف (يوسف جلبي) ، كما زار فلسطين عام ١٠٧٤ ، وعاد إلى أزمير عام ١٠٧٦ فجاءته وفود يهودية ، وقسم العالم إلى ٣٨ جزءا ، وعين لكل جزء ملكا ، وتصور أن يكون الجميع يتبعون له وهو يقيم دولته في القدس .

وادعى آخر أنه المسيح المنتظر ، ويدعى كوهين ، ووقع الخلاف ، فاشتكى الآخر إلى الدولة مدعيا أن ساباتاي يعمل لقيام تمرد ضد الدولة ، ويدعو إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين ، فقبضت الدولة على ساباتاي ، وتشكلت له محكمة من كبار العلماء وقضت عليه بالإعدام فخاف من الموت وأعلن إسلامه وصار يدعى محمد البواب لأن السلطان منحه راتب رئيس البوابين ، غير أنه في الباطن بقي يهوديا . وطلب من السلطات العثمانية أن تسمح له بدعوة اليهود إلى الإسلام فأذنت له وبدأ يبث سمومه . ويطلب من أتباعه أن يظهروا الإسلام ويبطنوا اليهودية ليهدموا من الداخل فيصومون أحيانا ويحجون أحيانا ، ويدخلون المساجد وهم من اليهود . والدونمة ثلاث فرق هي : اليعاقبة ، والقراقاشية ، والقبانجية واستطاعت الفرقة الأخيرة (القبانجية) من التغلغل في أوساط حزب الإتحاد والترقي ، وأصبح لهم دور فيه ، وأداروا الجزء الأكبر من الإنقلاب ضد السلطان عبدالحميد .

ليهود الدونمة لغتان ، التركية للتفاهم مع مجتمعهم التركي ، والإسبانية للتعامل فيما بينهم ولهم دور كبير في الإعلام ، إذ يملكون أهم الصحف " مؤسسة حريب " التي قامت عام ١٣٦٧ ، وجريدة

"كون ابدين " وتعني صباح الخير ، وجريدة " مليت " وتتبع هذه الجريدة مجلة " صنعت " وتعني الفن ، وجريدة " جمهوريت " وجريدة " ترجمان " وهذه أكبر الصحف التركية
ويدعو الدونمة للإختلاط والسفور ، وإلى الماسونية ، وإقامة مسابقات ملكات الجمال ، والتعاون مع إسرائيل ، ومحاربة العرب ، ومنهم الذين يتجهون نحو الغرب ، ومنهم الذين يتجهون نحو الشرق ليكون لهم في كل مجال ميدان .انتهى.

[٨] المشروع الختامي

وقف الصحفي اليهودي " ثيودور هيرتزل " عام ١٨٩٥ وهو يتأمل أحوال إخوانه اليهود وهم مشتتون ومتفرقون ومنبوذون من كل بلد بلا شوكة ولا قوة تحميهم ، فقرر حينها إنشاء دولة تكون ملاذا لليهود ومأوى لأحلامهم وطموحاتهم ، فدفعته تلك الفكرة الحالمة الخلابة إلى تأليف كتاب أطلق عليه اسم (الدولة اليهودية) يدعو فيه جميع يهود العالم إلى التجمع في مكان واحد لتكون لهم دولة ، ولكن أحدا لم يصغي إليه واتهموا فكرته بالخيالية والبعد عن الواقع ، فاليهود مشتتون في روسيا وأوربا وأمريكا وغيرها ، وهم منبوذون ومكروهون في كل أرض تطأها أقدامهم ، لسوء جوارهم وفساد أطباعهم ، فمن سيساعدهم على إنشاء دولة لهم ؟ وأين ستكون هذه الدولة ؟ ولكن هذه المعوقات لم تثني هيرتزل عن المضي في مشروع حياته الذي أوقف نفسه عليه ، وبدأ يفكر في الطريقة التي يحرك فيها مشاعر اليهود تجاه فكرته الخيالية كما يرونها .
فقام بتفريغ أفكار كتابه (الدولة اليهودية) على شكل مسرحية عرضت في باريس عام ١٨٩٦م ولاقت نجاحا كبيرا ، واستقبل اليهود الكتاب و المسرحية بحماس شديد واعتبروه بداية عهد جديد لهم ، وبعد أن حقق شهرة كبيرة بين أوساط اليهود قام " ثيودر هيرتزل " بدعوة يهود العالم في جميع الدول إلى أول اجتماع عالمي لليهود ، وقد تم ذلك في مؤتمر " بازل " في سويسرا عام ١٨٩٧م بحضور ٢٠٤ مندوبا عن الجاليات اليهودية من سبع عشرة دولة ، وقام بطرح فكرته عن إنشاء دولة لليهود وأن تكون المنظمة الصهيونية العالمية مسؤولة عن متابعة ذلك ، فوافق الجميع وانتخبوه رئيسا للمؤتمر وقام بعدها بوضع برنامج وخطوات عملية لجمع الأموال والتأييد والتنسيق

مع القوى العظمى من أجل تحقيق ذلك الحلم الذي بدأ يأخذ مكانه في عالم الحقيقة ، ثم توفي " هيرتزل " عام ١٩٠٤م ، وبعد ٤٤ سنة من وفاته أعلن " بن غوريون " في ١٤ آيار عام ١٩٤٨م قيام دولة إسرائيل في فلسطين المحتلة ، ثم قام اليهود بنقل جثمان مؤسس الصهيونية العالمية " ثيودر هيرتزل " إلى تل أبيب عام ١٩٤٩م وفاء للرجل الذي قامت الدولة على بنات أفكاره . .

والحقيقة التي أود أن أشير إليها هنا أن العمل الإستخباري المنهجي الذي قامت على أساسه دولة إسرائيل كان قد بدأ بشكل رسمي منذ المؤتمر الأول للمنظمة الصهيونية أي في عام ١٨٩٧ . وقد رفع المؤتمر شعاره " العودة إلى جبل صهيون " وأخذ يناقش بعض التقارير المفصلة عن أوضاع الجاليات اليهودية في العالم وأوضاع فلسطين والنشاط الإستيطاني فيها الذي بدأ على يد " جمعية أحباء صهيون " ، ومن تلك الفترة إلى إعلان قيام الدولة ، أي خلال خمسين سنة تقريبا استطاع اليهود عن طريق العمل الإستخباري المتقن والخفي والممنهج من أن يحققوا اختراقات سياسية وأمنية واقتصادية في جميع الدول العربية المحيطة بفلسطين ، واستطاعوا قبل كل شيء هدم الخلافة الإسلامية الذي كان يشكل بقائها عائقا في وجه اليهود وأطماعهم في إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل ، وذلك عن طريق اختراق مؤسسة الحكم العثماني من خلال جمعية الإتحاد والترقي التي كانت تدار بعقول يهود الدونمة .

ومن خلال جماعات الضغط الخاصة بالمنظمة الصهيونية في داخل الدول الإستعمارية الكبرى وخاصة بريطانيا التي وقعت فلسطين في حصتها بعد تقسيم تركة " الرجل المريض " استطاعت الجمعيات الصهيونية من التوسع في إنشاء المستوطنات اليهودية في فلسطين حتى بلغ عددها قبل إعلان الدولة ٢٩٢ مستوطنة ، وتحت اسم " فرق الدفاع الذاتي للمستوطنات " أنشأ اليهود عصابات مسلحة خاصة بهم قامت على خبرات الضباط اليهود في الجيوش الأوربية التي شاركت في الحرب العالمية الأولى أمثال " بن غوريون " الذي أسس فرق الحراسة الأولى التي تحولت إلى عصابات الهجانة ، وجابوتنسكي القائد الأعلى لعصابات الأرغون ، وقد بلغ عدد أعضاء هذه العصابات ٧٠ ألف مقاتل ، وضمت فرقا متخصصة في العمل الإستخباري – كان منهم رعاة غنم متخفين بالزي العربي – ومن هذه العصابات تشكل الجيش الإسرائيلي .

والقصد من وراء هذه اللمحة السريعة عن تاريخ نشأة دولة اليهود هو معرفة قيمة التخطيط الذكي

والمدروس للعمل الإستخباري في تحقيق الأهداف النهائية ، فمشروع الدولة اليهودية بدأ بفكرة كتاب ثم تطور إلى أسلوب إقناع بمسرحية ثم أثمر ذلك عن مؤتمر وضع فيه اللبنات الأولى لقيام دولة اليهود عن طريق حزمة من الخطوات السرية التي تراعي كل مرحلة وما يلزم لها .

وفي اعتقادي الشخصي أن سر نجاح مخططات اليهود في فلسطين يكمن في عبقرية هيرتزل الذي وضع يده على الجرح الذي يعاني منه اليهود ، وهو التشتت والفرقة ، فهو يعلم بيقين أن اليهود فيهم طاقات وإبداع وذكاء ويملكون قضية قومية دينية يستطيع من خلالها أن يأخذ بيد كل يهودي ليتجاوز به كل الخلافات التي بينهم – وهي كبيرة جدا – ليجمعهم على هدف واحد يستثمر فيه هذه الإمكانيات والطاقات المالية والبشرية الكبيرة ، والهدف بالطبع هو [الدولة اليهودية] والتي كانت عنوانا لكتابه الشهير .

إن أهم ما يميز اليهود عبر التاريخ هو إتقانهم للمؤامرات والحيل والتجسس ، فهم أكثر من يعرف قيمة هذه الأدوات في جني الثمار ، ولذا أنشأت الصهيونية العالمية الكثير من الجمعيات السرية التي تمكنت بواسطتها من إحكام قبضتها على الأنظمة الحاكمة في الأراضي العربية كالنظام الأردني والمصري على وجه الخصوص ، والأيام أثبتت أن هذه النجاحات لم تأت في يوم وليلة ولا في عام أو عامين بل عبر أجيال خططت وذهبت ثم أتت أجيال أخرى لتنفذ ، فجيل المخططين هيرتزل وصموئيل موهيليفر وغيرهم ذهب ثم أتى الجيل المكافح الذي بنيت الدولة على سواعده مثل بن غوريون وجولدا مائير ووايزمان ثم بيغن وموشي دايان ومن بعدهم ، وقد انقرضت هذه السلسلة الذهبية من الجيل المكافح والذي كان من آخرهم آرييل شارون ، وتوقفت تبعا لذلك عجلة الإنتصارات العسكرية والإستخبارية لليهود ، وأصبحت إسرائيل الآن في أيدي ثلة ناعمة من المترفين الذين لم يكدحوا في بناء الدولة ولم يفقدوا قطرة دم واحدة في سبيل ذلك ، والهزائم الأخيرة في لبنان وغزة خير شاهد ودليل .

وقد بدا واضحا للجميع صحة توقع الشيخ أسامة بن لادن حفظه الله قبل أكثر من عشر سنين من أن أمريكا ستخرج من كونها قوة عظمى مع بداية الألفية الثانية وستأخذ مكانها في مقاعد الإحتياط للدول المنشغلة في مشاكلها الإقتصادية والداخلية ، وهذا برأيي ما سيدفع الساسة اليهود إلى البحث عن ظهر جديد يستندون عليه بعد أن يكسر الظهر الأمريكي كما فعلوا سابقا عندما

انكسر الظهر البريطاني فاستندوا بعده على الظهر الأمريكي بعد مؤتمر – بليتمور – فسميت بعملية تبديل الجياد ! ، واليهود الآن لن يجدوا أفضل من الإتحاد الأوربي لهذه المهمة بعد أن بدأ يأخذ شكله المتكامل وامتداده الدولي من جديد ، وعند هذه النقطة بالتحديد أعتقد أنه من المفيد جدا أن نوجه دفة العمل الإستخباري نحو بريطانيا و القوى الدولية المطلة على البحر المتوسط ومنذ الآن حتى لا تأتي علينا سبع أو عشر سنين إلا ونحن نمتلك وندير أشكال مختلفة من الهياكل التنظيمية السياسية والدينية والإجتماعية والإقتصادية ، والتي ستمثل لنا مراكز رصد للتحركات العسكرية والسياسية لحلفاء إسرائيل الجدد ، والتي سنكون في أشد الحاجة إليها عندما نضع الأرقام الأولى لأي خطة عسكرية تقودنا باتجاه القدس ، وقبل أن يتهمني أحد بالخيالية والبعد عن الواقع أقول وبالله التوفيق : إن أي مشروع إستخباري ناجح يجب أن يوضع بشكل مرن لا يعرضه للشلل أو الخسارة الكاملة ولا يتأتى ذلك إلا عندما يحقق هذا المشروع سلة من الفوائد التي إن خسرنا جانب منها غطت بقية الجوانب على هذه الخسارة ، أي أننا نحاول أن نستثمر أموالنا وأوقاتنا وإمكانياتنا في مشاريع غير قابلة للخسارة ، ومحاور النجاح هذه هي التي ستضمن لنا استمرارية العمل وهو أمر مطلوب وحيوي للعمل الإستخباري ، ونحن عندما نريد أن نخطط ونأسس لعمل إستخباري مرحلي في بلدان كبلدان أوربا فإننا نسعى إلى تحقيق أكبر عدد من الأهداف المتاحة في آن واحد – انظر فقرة تعدد الأهداف – كالحصول على المعلومات المهمة وتأمين الدعم المالي ومحاولة التأثير في الرأي العام الأوربي واستثمار الوجود الإسلامي وغيرها من الأهداف بالإضافة إلى محاولة فك الإرتباط بين اليهود والإتحاد الأوربي وهو الهدف الجوهري للخطة التي بنيناها على توقعنا السابق في انتقال حضانة إسرائيل من أمريكا إلى أوربا ، وحتى أقرب للأذهان ما يمكن لنا أن نعمله في كل جانب من جوانب العمل الإستخباري فإني أطرح فيما يلي نماذج عمل لخطة إختراق الإتحاد الأوربي :

١ – الجانب الإقتصادي

الحقيقة أننا قد مررنا بفترات حدثت فيها طفرة مالية كبيرة في التبرعات لمختلف القضايا الجهادية ، كما حدث في أفغانستان والبوسنة والشيشان وغيرها ، وقد وصلت المبالغ في إحدى هذه القضايا

إلى ٥٥ مليون دولار دفعة واحدة ، وهو مبلغ نستطيع من خلاله أن نحصل على أسهم في إحدى شركات صناعة الأسلحة في أوربا ، وعندما نحصل على مقعد في مجلس إدارة الشركة فسنكون بذلك أقرب ما نكون من مراكز اتخاذ القرار التي لا تبعد أسرارها عمن يجلس من حولنا على مقاعد مجلس الإدارة ! فكما أن أهل مكة أدرى بشعابها فكذلك أرباب تجارة السلاح أدرى بالحروب من غيرهم ، وذلك للعلاقة المتينة التي تربطهم مع كبار القادة العسكريين في العالم ، وقد حدثت قصة قبل أربع سنين من الآن بينت لي مدى أهمية هذا الأمر ، فقد كان هناك أحد تجار السلاح الخليجيين وكان ذا علاقة قوية بالساسة الفرنسيين لطبيعة عمله ، وبينما كان يستعد للعودة إلى بلاده بعد أن أنهى بعض الأعمال في باريس ، جاءه اتصال من أحد كبار العسكريين الفرنسيين يطلب منه البقاء في باريس وعدم التوجه إلى بلده خوفا على سلامته ، لأن المعلومات التي لديهم تشير إلى قرب حدوث خطر أمني كبير هناك ، فألغى السفر وبقي يترقب ويراقب الوضع من بعيد ، وبعدها بأيام قليلة وفي ليلة رأس السنة الميلادية بالتحديد نزلت مدرعات الجيش إلى الشوارع في بلده ، وحدثت حالة من الإستنفار الأمني بين صفوف رجال الأمن ! ثم زالت المظاهر الأمنية في اليوم التالي دون أن يعرف أحد ما الذي جرى بالضبط ! وبعد تضليل وتكتم طويل على الموضوع اتضح أنه كانت هناك محاولة للإنقلاب يقودها بعض كبار ضباط الجيش وكانت مقدرة في تلك الليلة ، ولكن تسرب بعض المعلومات أدى إلى كشفها من قبل المخابرات الذين استنفروا بعض القطاعات العسكرية لمجابهة ذلك ، ولم يكن يعلم بحقيقة الأمر سوى المخابرات المحلية وبعض الجهات الخارجية بالإضافة إلى تاجر السلاح ! وهذا مثال بسيط لما يمكن أن نحصل عليه حينما نكون بالقرب منهم ، أضف إلى ذلك أننا سنحصل على عوائد جيدة من استثماراتنا في قطاع الأسلحة ، وأيضا سنحصل على بعض المعدات المتطورة في عالم السلاح والتي لا تعرض في السوق لأي أحد بعد أن نقوم بدور وكيل البيع – ونكون نحن الطرف الثاني من العقد – وغيرها من الأمور التي يمكن أن نجنيها من هذا الإختراق وأمثاله إن تحقق بشكل مدروس وجيد .

وللإستزادة في هذا الموضوع راجع المقابلات الصحفية التي أجريت مع تاجر السلاح العالمي عدنان خاشقجي لمعرفة حجم المعلومات الإستراتيجية المهمة التي وقعت في حضن هذا الرجل من خلال

علاقاته الواسعة بأصحاب القرار في العالم .

والذي جعلته محط اهتمام دوائر الإستخبارات العالمية ، جاء في كتاب (عن طريق الخداع) لضابط الإستخبارات الإسرائيلي السابق فيكتور أوستروفسكي : وكان غوربانيفار مصدر معلومات لوكالة الإستخبارات الأمريكية منذ العام ١٩٧٤ وهو الرجل الذي نشر الإشاعات حول وجود فرق ليبية ضاربة أرسلت للولايات المتحدة لقتل ريغان في العام ١٩٨١ وبعد ذلك بعامين ، وبعد أن تبين أن تلك الإشاعات مفبركة أنهت الوكالة وضعه كمصدر للمعلومات وأصدرت في العام ١٩٨٤ (إشعار حرق) رسمي يحذر من أن غوربانيفار مفبرك إشاعات موهوب ، ومع هذا كان غوربانيفار هو الذي رتب القرض الجسر بقيمة ٥ ملايين دولار من الملياردير المعروف عدنان خاشقجي للتغلب على أزمة عدم الثقة بين إيران وإسرائيل في صفقة السلاح ، وكان الخاشقجي شخصيا قد جرى تجنيده كعميل للموساد قبل ذلك بعدة سنوات ، والواقع أن صورته الإستعراضية التي كتب عنها الكثير قد فصلت في اسرائيل ، ولم يكن الخاشقجي يتقاضى راتبا منتظما من الموساد كما يفعل العملاء النظاميون ، لكنه كان يستخدم نقود الموساد في العديد من استثماراته ، وكان يحصل على القروض كلما واجه أزمة أو ضائقة مالية ، كما أن مبالغ كبيرة من أموال الموساد كانت تمر من خلال شركات الخاشقجي التي أنشأ العديد منها مع اليهودي عوفاديا غاون وهو ثري كبير من أصل مغربي مقيم في فرنسا و الذي كان غالبا ما يلجأ إليه عند الحاجة إلى مبالغ كبيرة .

٢ – الجانب الإجتماعي :

أعتقد أن أفضل طريقة للتحرك من خلال هذا الجانب هو عن طريق الوجود الإسلامي في أوربا والذي بدأ يأخذ مكانه في الشارع الأوربي ، وأصبحت له مناطق سكانية يتجمع فيها وله من يمثله في عدد من البرلمانات الأوربية ، أضف إلى ذلك أن الوجود الإسلامي في أوربا يعد من أغنى المصادر في المعلومات الإستخبارية لانتشار المسلمين وتنوع التخصصات التي يعملون بها ، فكيف يمكن الإستفادة من هذا الوجود ؟

طبعا الوجود الإسلامي في أوربا وجود مشتت ويعاني من الكثير من المشاكل ، وعلى رأسها ضعف الهوية الإسلامية عند كثير من شرائحه بسبب الآثار المتراكمة للحياة الغربية على أجيال المسلمين

التي نشأت هناك . وفي تصوري أن الطريقة المثلى للإستفادة من هذا الوجود هو بتجميعه على هدف واحد متفق عليه ، وبطبيعة الحال فليس هناك أفضل من قضية المسلمين الأولى المتمثلة في المسجد الأقصى وفلسطين كمنطلق لمخاطبة هذه الجموع والتأثير فيهم ومن ثم نستطيع أن نعمل معهم لجذب المتعاطفين من خارج دائرة الإسلام أمثال عضو مجلس العموم البريطاني – غالاوي – وغيره من الشخصيات الأوربية الشهيرة .

وحتى يتم لنا ذلك أقترح إنشاء " جمعية إسلامية أوربية " تحت شعار واسم معين ويتركز عملها فقط في تنظيم المعارض والمحاضرات الخاصة بفلسطين وجمع التبرعات على هامش هذه الفعاليات ، على أن تأخذ هذه الجمعية الطابع التاريخي والوثائقي في عرض القضية ، وعلى أن توجه سياسة الجمعية نحو تحقيق بعض الأهداف المعلنة مثل :

١ – كشف حقيقة الوجود اليهودي في فلسطين والمؤامرات التي أدت إلى هذا الوجود .

٢ – كشف الجرائم الوحشية التي ارتكبها اليهود ضد الإنسانية في فلسطين .

٣ – توضيح دور مؤسسات الضغط اليهودية في أوربا وسبل إضعاف أثرها على أصحاب القرار .

٤ – حشد الشارع الإسلامي الأوربي خلف قضية واحدة تنمي مشاعر الوحدة بينهم .

٥ – المطالبة بإلغاء القرارات الخاصة بمعاداة السامية والتنسيق مع السياسين الأوربيين المستقلين لتحقيق ذلك – إن سقطت قوانين معاداة السامية فسنكون أكثر حرية في الهجوم الإعلامي على اليهود فيجب في البداية ألا نقع في أخطاء قانونية توقعنا في مشاكل مع القضاء الأوربي –

أما الهدف الحقيقي للجمعية فهو العمل على جمع المعلومات الإستخبارية المهمة التي تنكشف في اللقاءات الجانبية على هامش المنتديات التي نديرها وندعوا إليها كبار المثقفين والمختصين في التاريخ والسياسة ، فالحقل الأساسي الذي نعمل فيه هو هذه المنتديات والمحاضرات التي تجتمع فيها نخب إسلامية وأوربية متعاطفة معنا وفي نفس الوقت نعمل على خلق شريحة معادية لليهود من طبقة المثقفين الأوربيين من خلال الفعاليات التي نقيمها ونكشف بها زيف الدعاية اليهودية المقدمة للجمهور الأوربي ، لأن المثقف الأوربي هو مفتاح تغيير قناعات الشارع الأوربي . وهذه فقط فكرة أولية عن الشكل الذي يمكن أن تقوم عليه الجمعية ولكن من الضروري أن يتم العمل وفق خطة

محكمة وذات مراحل وأن يشرف على العمل شخص يتوفر فيه الذكاء والفطنة والمهارة في التنسيق والتنظيم والعلاقات العامة والإلمام باللغة الإنجليزية والفرنسية على وجه الخصوص ، وأن يشكل فريق عمل تطوعي في كل مدينة ذات كثافة إسلامية يشرفون على المعارض والمنتديات ، ويفضل أن يكون الفريق من الطلبة المسلمين في الجامعات الأوربية لأنهم أكثر من سيساعدنا على دعوة الأساتذة الجامعيين إلى هذه المحاضرات ، ولأن طلبة الجامعة يتميزون بالنشاط في العمل السياسي أكثر من غيرهم ، ولأننا سنعتمد عليهم في عملية جمع التبرعات على هامش المنتديات والمعارض ، ويجب هنا أن يستثمر مدير الجمعية إمكانيات المسلمين والمتعاطفين هناك لتأمين صالات العرض وتكاليف الدعاية واستقبال المحاضرين وغيرها مما يمكن تأمين تكاليفها بشكل تعاوني كنوع من المساهمة في الجمعية ، وكل هذا يحتاج إلى عقلية إدارية فذة أتوقع بوجودها — وتوفيق الله قبل ذلك – أن يتأسس على يديها أول مراكزنا الاستخبارية المتقدمة في أرض العدو .

٣ – الجانب الديني :

أقترح تأسيس دار نشر متخصصة بالكتب الدينية المسيحية ، وتبدأ بتشكيل لجنة عمل يتظاهرون بالمسيحية – وهم رجالنا –ومسيحيون أصليون من الخبراء في تاريخ الكتب المسيحية ، على أن تكون فكرة عمل اللجنة تدور حول البحث عن الكتب والأبحاث التي كتبها علماء وقساوسة النصارى على مدى القرون السابقة والتي تضمنت شرح نصوص التلمود اليهودي الذي تضمن الكثير من الإساءة للنصارى وللمسيح وأمه عليهما السلام لإعادة نشرها من جديد ، فتلك النصوص احتوت على تعليمات لليهود بوجوب لعن النصارى كل يوم ! وأن مريم عليها السلام زنت فأتت بعيسى عليه السلام – معاذ الله – وأن عيسى في جهنم الآن وغيرها الكثير ، وقد كانت هذه النصوص سببا كبيرا في عداء النصارى لليهود في القرون الماضية وكرههم الشديد لهم إبان سيطرة الكنيسة على أوربا في العصور الوسطى ، ولم يستطع اليهود الخروج تدريجيا من سخط النصارى إلا بعد أن ساعدوا على الإيقاع بين الشعوب الأوربية من جهة ورجال الدين من جهة أخرى مستغلين حركة التمرد على فساد الكنيسة ، ثم قاموا بملء الفراغ بموجة كبيرة من الإلحاد والعلمانية والأفكار الهدامة التي ظهرت على يد عباقرة اليهود أمثال عالم النفس الشهير " فرويد "

والفيلسوف " نيتشه " و " داروين " صاحب نظرية أصل الأنواع و "كارل ماركس " صاحب النظرية الشيوعية وغيرهم ممن اكتوت البشرية جمعاء من فيض أفكارهم الخبيثة ، ولم يكتف اليهود بذلك حتى أنشأوا مذاهب نصرانية تساند الأفكار اليهودية المتعلقة بشعب الله المختار و حق اليهود في فلسطين ، ومن هذه المذاهب طائفة – المورمون – التي أسسها الأمريكي النصراني – يوسف سميث – في مطلع القرن الثامن عشر وقد تكلل هذا الإختراق الديني بإرغام أكبر الكنائس النصرانية [الكاثوليكية] على إصدار صك من البابا – يوحنا بولس الثاني – بإلغاء بعض النصوص الواردة في الإنجيل والتي تشتمل على شيء من الإساءة لليهود ! وتم التعديل عام ١٩٩٧م بعد مناقشة من قبل ٦٠ خبيرا دينيا في اللاهوت الكاثوليكي والبروتستاني ، وأطلق على الوثيقة اسم " نحن نتذكر " ! لقد كان هناك بالفعل تيار فكري مليء بالعداء والكره لليهود ، وعمل على تقتيلهم وتشريدهم طوال القرون الماضية ، وقد كان يرتكز على دعائم دينية راسخة ولم يكن نتيجة موقف شخصي أو نزاع سياسي بل كان نزعة دينية جامحة تدفع النصارى للذود عن اسم المسيح عليه السلام وتصب جام غضبها على قتلته !

إذن فالمطلوب هو إحياء هذا التراث المدفون والذي تحرص الصهيونية العالمية على إخفاءه بشتى الطرق وتقديمه للجمهور الأوربي النصراني بوجه جديد من خلال كتيبات أو نسخ طبق الأصل أو منشورات أو لقاءات مرئية وسمعية وصحفية وغيرها من الأدوات التي تقدم هذا الموضوع على أحسن وجه وعبر وسائل إعلامية وقنوات دينية تتبنى الموضوع ونقوم نحن باقناعها بهذا الدور – بدافع الحمية – ونتكفل بكافة النفقات الإعلامية لمواد الطباعة والنشر على أن تعود العوائد الربحية من خلال البيع على مؤسسة النشر الخاصة بنا حتى نضمن استمرار العمل .

ويجب التنبيه هنا إلى أن ما نقوم به هو نفس ما قام به الرسام الدانمركي لعنه الله في موضوع الرسوم المسيئة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فهذه الرسوم عندما ظهرت وأعيد نشرها في بعض الصحف الأوربية بإيعاز من جهة ما ؟ أدت إلى حدوث حالة من العداء الشديد والكراهية من المسلم العادي – الذي لا يعلم الكثير عن الدين – ضد النصارى بوجه عام ، ونحن بإعادة نشرنا لهذه الكتب والمقالات بطريقة مدروسة وجيدة وممنهجة وعن طريق قسيسين ومفكرين دينيين يملكون الشجاعة الدينية والأدبية الكافية للثبات في وجه النفوذ الصهيوني ، أقول إن نجحنا في ذلك

فسنعيد بإذن الله مسار العداء اليهودي النصراني إلى ما كان عليه في العصور الماضية ، وبذلك نكون قد وصلنا إلى نقطة [فك الإرتباط الشعوري] بين إسرائيل وحلفاء المستقبل ، وهي نقطة جوهرية لإضعاف جبهة الدعم الخارجي للعدو الصهيوني ، فتحريرنا للقدس لن يكون فقط بدخولنا المسجد الأقصى فاتحين بل بفك وإفشال ودحر أي تحالف عسكري يشكل لإنقاذ اليهود ، فاليهود يسيطرون على منظمات دولية ويمتلكون مؤسسات مالية وإعلامية وطاقات بشرية أكثر مما يمتلكونه في فلسطين المحتلة نفسها ، وهذا يؤهلهم لأن يعيدوا احتلال الأراضي المحررة بسرعة كبيرة إن لم نركز جهودنا على تفكيك مفاصل النفوذ اليهودي في أوربا ومنذ الآن ، وهذا عين ما فعله محمد الفاتح قبل دخوله القسطنطينية فقد عمل على إضعاف الجبهة الداخلية الأوربية عبر احتلال بعض الممرات الإستراتيجية وتحييد بعض الخصوم واستغلال الخلاف القديم بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية على القسطنطينية وفرح الثانية بأي زوال للأولى عن مركزها التاريخي ، أظف إلى ذلك الخلافات الكبيرة التي كانت تعصف بين الممالك الأوربية ، كل هذه الظروف ساعدت على فشل الحملة الصليبية التي قادها بابا روما لإنقاذ القسطنطينية .

وقد خرجت بعض المحاولات الجريئة من قبل بعض النصارى الغيورين ضد اليهود ، والتي كان من آخرها الفلم الذي أخرجه وأنتجه الممثل المشهور " ميل جبسون " ويحكي قصة قتل اليهود للمسيح عليه السلام ، فأثار زوبعة إعلامية كبيرة سرعان ما تحرك اليهود يمنة ويسرة لإيقاف عرض الفلم وسحبه من الأسواق وملاحقة من كانوا وراء ذلك قضائيا وحصاره إعلاميا ، وقد كنت أبحث كثيرا في سبب اهتمام اليهود بتفعيل مبدأ " معاداة السامية " أي معاداة اليهود واستصدار القرارات التي تجرم العمل الإعلامي العدائي تجاه اليهود ! والتي كان من آخرها ما سنه بوش الإبن بموافقة الكونجرس الأمريكي من إصدار تقرير سنوي يتابع حالات معاداة السامية في العالم كله ! فوجدت أن السبب يعود لخوف اليهود وهلعهم من إثارة التراث التلمودي العدائي تجاه النصارى وللتاريخ اليهودي الأسود مع الشعوب الأوربية الذي يؤدي بطبيعة الحال إلى المفاصلة الشعورية وانتقال حالة التعاطف التي كسبها اليهود من خلال تضخيم قضية " الهولوكوست " إلى حالة العداء القديمة بين أتباع الديانتين والتي ستفقد اليهود تأييد الشارع النصراني اللازم لنجاح عمل مؤسسات الضغط اليهودية في تلك البلدان . أحب أن أؤكد في نهاية هذا الجانب على أهمية الأخذ بآراء الإستشاريين

النفسيين عند التسويق الإعلامي لهذه المواد ، وأن يبدأ العمل في أقل البلدان من ناحية النفوذ اليهودي ، وأن يوضع شعار عام للجنة أو الجمعية المعنية بمتابعة العمل ، كالمطالبة بحذف الإساءة ضد المسيح من التلمود اليهودي ومطالبة اليهود بالإعتذار عن ذلك وستكون هذه مطالب عادلة بالنسبة للنصارى ، أما اليهود فلن يصدر منهم أي اعتذار ولن يقوموا بأي حذف لنصوص التلمود الذي يقدسونه أكثر من التوراة نفسها ، وعندها يجدر بنا أن نوسع دائرة الخلاف وذلك بتأسيس جماعات عنصرية سرية تطالب بطرد اليهود من أوربا أو قتلهم ، ولعلنا ننفذ بعض العمليات باسمهم ولكن في شطر أوربا الغربي بعيدا عن المانيا حتى لا ينسب اليهود تلك الأعمال إلى جذور نازية ضدهم ، وتبقى كل السيناريوهات التي ممكن أن نفعلها محل دراسة ومتابعة من قبل المشرفين على العمل لتقييم النتائج أولا بأول .

الجانب السياسي :

أقترح تشكيل مجموعة عمل من ذوي الخبرة في المجال الحقوقي والإعلامي – وهم رجالنا – ليبدؤا في إجراء مسح سكاني لأعداد المسلمين في أوربا وأماكن تجمعهم والنواب الذين يمثلونهم في البرلمانات وبقية المعلومات الخاصة بمشاكلهم القانونية والمعيشية والحقوقية ، ثم تقوم هذه المجموعة بتأسيس " مركز للدراسات الحقوقية " يعني بوضع الحلول لمشاكل المسلمين في القارة الأوربية ويكون منبرا للمطالبة بحقوقهم المختلفة ، ونبدأ قبل كل شيء بدراسة شخصيات النواب المسلمين في البرلمانات الأوربية لنختار أصحاب الميول الإسلامية الذين يمكن أن نعمل معهم ، فبعض النواب المسلمين أوربيين أكثر من الأوربيين أنفسهم وهؤلاء لا يصلحون لما نحن بصدده ، وبعد أن ندعوا البرلمانيين وممثلي المؤسسات الحقوقية وسفراء الدول الإسلامية لحفل افتتاح المركز ، نقوم بإصدار تقرير شهري عن أوضاع المسلمين في أوربا ، وهذا التقرير سيعتمد عليه في مخاطبة الجهات المعنية بمعالجة هذه الأوضاع كجمعيات حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية والصليب الأحمر وغيرها ، وهذه المعلومات سنأخذها مباشرة من الأعضاء المسلمين في البرلمانات الأوربية ، وسيتم بناء علاقة متينة معهم للتعاون في مساعدة المسلمين والذين يعانون من مشاكل قضائية أو اضطهادية في أوربا ، هذا التعاون والإتصال المباشر مع أولئك الأعضاء سيجعلهم مع مرور الوقت يندمجون أكثر مع

قضايا المسلمين المتنوعة عبر ما نزرعه فيهم من حمية على المسلمين وما يتعرضون إليه في هذه الدول من أنواع التمييز العنصري والظلم المجحف وسوء المعاملة وغيرها . . . وهذا ما سيقودهم إلى تزويدنا بكل ما يعترضهم في أروقة المجالس البرلمانية من معلومات هامة تخص المسلمين ، وقد تساعد في رفع المعاناة عنهم وهذا طبعا القالب الذي سنعمل من خلاله ، أما المعلومات فستكون أشمل من ذلك بإذن الله لأن البرنامج النفسي الذي سيوضع لكل من سنختاره من النواب المسلمين سيجعلهم جواسيس لنا من غير أن يشعروا بذلك ، إلا أنهم تحت التأثير العاطفي الكبير الذي أوجدناه عندهم تجاه قضايا المسلمين في أوربا سيتصرفون بدافع ديني عاطفي طبيعي ويزودوننا بالمعلومات المطلوبة لعمل المركز لأننا نحن المدافعون الرسميون عن حقوق المسلمين في أوربا ، وهذا المدخل الذكي سيجعلنا نطور العمل معهم ليشمل بقية المعلومات الخاصة بالدول الإسلامية وخطط الغرب تجاه ذلك ، فنكون بذلك قد نجحنا في زراعة مجسات ميكروفونية في غرف وقاعات صنع القرار في أوربا !

وتبقى آلية عمل المركز وطرق تطويرها في كل مرحلة متروكة لإبداعات أعضاء مجموعة العمل ، وهذه الطريقة مشابهة إلى حد ما لطريقة عمل [اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للعلاقات العامة] والتي يطلق عليها " الأيباك " وهي أكبر جماعة ضغط يهودية في أمريكا ، ولها مؤتمر سنوي وتعمل على توجيه السياسة الأمريكي بما يناسب المصالح الإسرائيلية ، وتقوم بدعم المرشحين للرئاسة الأمريكية ، حيث إن هذه اللجنة تقوم بدفع معظم تكاليف الحملات الإنتخابية لمن تختاره من المرشحين للرئاسة سواء من الجمهوريين أو الديمقراطيين ، وهذا يضمن لها ولاء أي منهم في حالة فوزه ، وتقوم هذه اللجنة بإصدار تقرير عن الأوضاع السياسية في الشرق الأوسط وملحق به ، اسمه " الحقائق والأكاذيب " ويعتبر هذا التقرير هو المصدر الرئيسي للمعلومات عند أعضاء مجلس الكونجرس والشيوخ الأمريكي ، وبما أننا لا نملك القدرات المالية الضخمة لدعم بعض النواب واستثمار ذلك لمصلحتنا كما تفعل " الأيباك " المكونة من ٤٥٠ عضو من أثرى أثرياء أمريكا فإننا سنعتمد على النمط الحقوقي في تفعيل دور المركز حتى يتم تطوير العمل في المراحل المتقدمة ، وأنصح أعضاء مجموعة العمل بإجراء دراسة شاملة وموضوعية لطريقة عمل جماعات الضغط

اليهودية في العالم والإستفادة من ذلك في عملهم لأن اليهود هم أصحاب السبق في ذلك والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها .

أود أن أشير في نهاية هذه الجوانب إلى أنني هنا فقط أطرح أمثلة قابلة للتطبيق – مفاتيح عمل – وليس بالضرورة التقيد بالأمثلة السابقة إن كانت هناك أفكار ذكية ومدروسة ويتم متابعتها وتطويرها بشكل جيد ولكني أحب التأكيد على أن هذا المجال هو حكر على أهله الذين تتوفر فيهم الصفات اللازمة للعمل الإستخباري فمع أن الصحابة رضوان الله عليهم كلهم عدول إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يختر للمهام الإستخبارية إلا من يصلح منهم لذلك كحذيفة بن اليمان الذي قال له النبي صلى الله عليه وسلم (قم يا حذيفة فأتني بخبر القوم) لأن حذيفة هو كاتم سر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر اللؤاء محمود شيت خطاب في ترجمته لحذيفة بن اليمان أنه يحمل صفات ضابط الإستخبارات المثالي ، ولذا فإنه ينبغي مراعاة ثلاثة شروط أساسية فيمن يتصدى لهذا الدور الخطير وهي :

١ – الكفاءة الشخصية : حسب ما بيناه في ملامح شخصية العميل السري .

٢ – الإمكانيات الفنية : من حيث اللغات والتخصصات والقدرات المالية المطلوبة للعمل .

٣ – الخطة المناسبة : فإن وجدت هذه الشروط في أي منا فليستعن بالله ولا يعجز وليحتسب أجره على لله فقد كان ثواب الهدهد على عمله الإستخباري الفردي الذي لم يكن بإذن الملك سليمان عليه السلام ولا بتخطيط من أحد سوى الهدهد نفسه كان ثوابه أن جعله الله من الحيوانات التي يحرم قتلها فانظر فضله على من بعده من أبناء جنسه ! بعكس الوزغ الذي أعان أعداء الدين في حرقهم لإبراهيم فكان جزاءه أن جعل الله ٣٠٠ حسنة لمن قتله من أول ضربة فانظر أي لعنة حلت على من بعده من أبناء جنسه بسببه ! أما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجد أفضل من أن يقول : (من يأتيني بخبر القوم أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة !) جزاء للعمل الإستخباري الفردي الذي سيعرف المسلمون من خلاله أين يقفون في المعركة ! فمن يأتيني بخبر القوم ؟

الخاتمة

دعوة إلى العمل . . .

قال علي رضي الله عنه (رب همة أحيت أمة) أدعو إخواني أصحاب الهمم العالية والقدرات الخاصة إلى تشكيل مجموعات العمل الخاصة بهم والبدء في تأسيس الجمعيات والهيئات منذ الآن وبشكل مستقل فإن كتب لهم النجاح واستطاعوا إدارة عمل يدر معلومات إستخبارية مفيدة ويخدم مصالحنا الإستراتيجية فعندها تتم عملية الإتصال مع الجهات المسؤولة عن استثمار هذه المعلومات وتوظيفها التوظيف السليم ، أي أننا سنقسم العمل إلى مرحلتين تبدأ الأولى بشكل فردي في التخطيط والبناء والإدارة ووضع السياسات العامة ثم المرحلة الثانية والتي يتم فيها دمج وتوجيه العمل الإستخباري بما يخدم المسار العام للمعركة ، وقد كنت مترددا بعض الشيء في الدعوة إلى استقلالية العمل الإستخباري في البداية ، ولكني وجدت أن المؤتمر اليهودي الأول الذي عقد في بازل عام ١٨٩٧ ضم جمعيات سرية يهودية أنشأت قبل ذلك وساعدت على تفعيل دور المنظمة الصهيونية العالمية بعد أن دمج " هيرتزل " قدرات هذه الجمعيات ووظفها في تأسيس دولة اليهود في فلسطين ، وبما أن العمل الإستخباري كما عرفنا يختص بالنخب وأصحاب القدرات الخاصة فإنني أتوجه بهذه الدعوة لذوي العقول والإختصاصات الأكاديمية إلى البدء الجدي في تشييد أركان حصان طروادة الذي سندخل من خلاله إلى عمق الغرب الإستراتيجي من غير أن يشعر بنا أحد ، وإلى أن نلقاكم في المرحلة الثانية أسأل الله أن يجعلكم خير طليعة لخير أمة أخرجت للناس .

تم بعون الله وحمده الإنتهاء منه في صباح الخميس ١٧ /محرم/ ١٤٣٢ للهجرة ، والحمد لله على كثير نعمه وعظيم إحسانه وخفي لطفه .